المعية الإلهية في ضوء القرآن الكريم

معانيها ودلالاتها

د. ناصر بن محمد عبدالله الماجد

د. ناصر بن محمد عبدالماجد

- أستاذ مساعد بقسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- حصل على درجة الماجستير في القرآن وعلومه من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بأطروحته: (عادات أهل الجاهلية – دراسة موضوعية في ضوء القرآن الكريم).
- حصل على درجة الدكتوراه في القرآن وعلومه من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته: (أحكام القرآن للقاضي بكر بن العلاء القشيري، من أول سورة الأنفال إلى آخر القرآن – دراسة وتحقيق).

مُقَدِّمَة

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ٧٠] ،،، أما بعد:

فإن أشرف العلوم منزلة، وأرفعها مكانة، ما اتصل بكتاب الله بسبب، ودنى منه بقربى، ومن هنا كان بيان كلام الله – تعالى – وتفسيره؛ أشرف العلوم وأرفعها، ويزداد الشرف والرفعة إذا كان محل النظر من كلامه – تعالى – ما تعلق بذاته وما له من جميل الصفات وجَلِيلِها سبحانه وبحمده.

ومن هنا تأتي أهمية دراسة الآيات المتعلقة بما يجب أن يعتقده العبد في ربه، ومن ذلك ما تعلق بأسمائه – عز وجل – وصفاته، وحقيقة ما يجب لله فيها، ذلك أن القرآن الكريم هو المورد الذي يصدر عنه المؤمن في عقيدته، وما يجب لربه، وهو المعتصم من مسارب الضلال، ومَعْقِد النجاة يوم الحساب.

وإنك لن تجد منتحلاً لعقيدة، أو مدعياً قولاً فيما يجب لله – تعالى –

من حقائق الاعتقاد، إلا وجعل آيات الكتاب العزيز دليله ومُعْتَصمه، إنْ بحق أو بباطل، ولهذا كان من الواجب على أهل العلم، المقتفين آثار السلف، من القرون المفضلة والتابعين لهم بإحسان؛ أن يبينوا معاني آيات الكتاب العزيز، وما دلت عليه مما يجب اعتقاده في الله - عز وجل -

ولهذا فقد عزمت مستعيناً بالله راجياً منه التوفيق، على دراسة آيات من كتاب الله - العزيز - تتعلق بصفة من صفات الله - عز وجل - وهي صفة المعية، وأسميت هذه الدراسة:

«المعية الإلهية في ضوء القرآن الكريم ، معانيها ودلالاتها» .

- **أهمية الموضوع وسبب اختياره.**

لموضوع المعية عدد من الجوانب الدالة على أهميته، والتي كانت سبباً لاختياره، منها:

أولاً: يتميز هذا البحث بأنه يدرس أبواباً من العقيدة بمنهج تفسيري، يقوم على جمع الآيات ذات الصلة بالموضع، والنظر في معانيها، والسياق الذي وردت فيه، والدلالة الموضوعية التي احتفت بها، مما يضيف لتلك المسائل العقدية أصالة في النظر، وجِدَّةً في البحث، وهذا معنى لفت النظر إليه ابن تيمية حيث يقول: " فلفظ المعية قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع، يقتضي في كل موضع أموراً لا يقتضيها في الموضع الآخر؛ فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها، وإن امتاز كل موضع بخاصية"[1] .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية(٥/ ١٠٤).

ثانياً: أن من تكلم في آيات المعية من سلف هذه الأمة، وأهل العلم، كان همهم متعلقاً بتقرير دلالاتها على معية الله – تعالى – دون نظر للمعاني الأخرى التي تدل عليها، وهذا ما يسْتَوفِز همة المشتغل بكتاب الله للنظر في تلك المعاني وتجليتها.

ثالثاً: أن القرآن الكريم هو المورد الأول لمعرفة صفات الله – سبحانه – وما يجب له من الاعتقاد، ولهذا فإن جميع الطوائف المنتسبة إلى الدين، المخالفة لما كان عليه سلف الأمة في باب الاعتقاد، قد استدلت بآيات القرآن الكريم على قولها، ومن ذلك ما تعلق بمعيته – عز وجل – خلقه، مما يقتضي جمع هذه الآيات ودراستها، وإيضاح المعاني التي تدل عليها، وبيان الانحراف المنهجي في تفسيرها عند تلك الطوائف.

رابعاً: يؤكد هذا أنني لم أجد بحثاً أو مؤلفاً درس آيات المعية كلها، وإنما غالب البحث والتقرير يقتصر على آيات محدودة، هي آية سورة التوبة، وآية سورة الحديد، وآية سورة المجادلة، مع وجود آيات أخرى، متعددة في ذاتها، ومتنوعة في معانيها ودلالتها ولوازمها، مما يقتضي جمعها ودراستها.

- **حدود البحث**.

يتعلق هذا البحث بدراسة جميع الآيات الكريمة التي فيها ذكر لمعية الله – تعالى – وذلك بحصرها، وبيان معانيها، ودلالاتها، ولوازمها، وسياقها الذي وردت فيه، وذلك بدراسة غالب كتب التفسير المستقلة المشتهرة المتداولة بين الناس على اختلاف عقائدهم؛ عدا المختصرة منها؛ لأن مواقفهم – بهذا الوصف – مما تدعو الحاجة إلى بيانه، ودراسته،

وتعريف المختصين بها، وهي:

جامع البيان للطبري، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين، تفسير السمرقندي، الكشف والبيان للثعلبي، الهداية لمكي بن أبي طالب، عرائس البيان للبقلي، حقائق التفسير السلمي، النكت والعيون للماوردي، التبيان للطوسي، المحرر الوجيز لابن عطية، زاد المسير لابن الجوزي، الكشاف للزمخشري، مجمع البيان للطبرسي، مفاتيح الغيب للرازي، البسيط للواحدي، معالم التنزيل للبغوي، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، أنوار التنزيل للبيضاوي، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، مدارك التنزيل للنسفي، لباب التأويل للخازن، البحر المحيط لأبي حيان، غرائب القرآن للنيسابوري، تفسير ابن عرفة، تفسير القرآن العظيم لابن كثير، الجواهر الحسان للثعالبي، اللباب لابن عادل، نظم الدرر للبقاعي، إرشاد العقل السليم لأبي السعود، روح البيان لإسماعيل حقي، البحر المديد لابن عجيبة، تفسير الأعقم، تفسير كتاب الله العزيز للهواري، هميان الزاد لأطفيش، فتح القدير للشوكاني، روح المعاني للألوسي، محاسن التأويل للقاسمي، التحرير والتنوير لابن عاشور، أضواء البيان للشنقيطي، الميزان للطبطبائي، تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي.

- **منهج البحث:**

سأسلك في هذا البحث – إن شاء الله – منهجاً وصفياً تحليلاً، كما أني اعتمدت في هذا البحث على عدد من الأمور المنهجية في الدراسة وهي:

أولاً: راعيت عند دراسة الآيات الكريمة المتعلقة بالمعية أمرين:

- التعريف بالسورة التي ورد ذكر المعية في أثنائها، وسياق الآية فيها إجمالاً.
- الاقتصار في استنباط الفوائد والدلالات من الآيات الكريمة على ما يتعلق بمعنى المعية، أو يلزم منها.
- بعض الآيات تشترك في عدد من الدلالات والفوائد، ولهذا أكتفي بذكر تلك الدلالات في أول موضع، مُستغنياً به عن إعادتها في الموضع الآخر.

ثانياً: تتبع أقول المفسرين في كتبهم المشهور المتداولة بين الناس التي ورد ذكرها في حدود البحث، وقد قام ذلك التتبع على عدد من الأسئلة المنهجية، أهمها:

- هل المفسر يتناول معنى المعية في موردها من الآيات بالبيان والتوضيح أو يدع بيانها ؟
- وإذا كان يعمد إلى البيان، فهل يفصل فيه أو يجمل ؟
- ما موقفه من الخلاف في معنى الآيات، هل يشير إليه أم يغفله ؟
- وإذا كان يشير إلى الخلاف في معنى الآية؛ فهل يفصل فيه عرضاً

ورداً أو يجمل ؟

ثالثاً: منهج بيان موقف المفسرين من معنى آيات المعية، وفق التالي:

- إذا اتفق المفسرون الذين ذكرتهم في حدود الدراسة على معنى معين من معاني آيات المعية؛ فإني أشير إلى ذلك المعنى، وأشير إلى أنه قول عامة المفسرين ولا أنص على أحد بعينه اكتفاء بأنه قول العامة.
- إذا قال أكثرهم بمعنى معين معاني آيات المعية، فإني أنص على أنه قول الأكثر، وأسمي بعضهم من باب التمثيل، وأنص على من ذكر معاني أخرى سوى قول الأكثر.
- وما سوى ذلك فإني أنص عند ذكر كل معنى على قائله.

- **خطة البحث**

تشتمل على: مقدمة، وفصلين، وخاتمة، وفهارس.

المقدمة: أهمية الموضوع، وسبب اختياره، ومنهج البحث وخطته.

الفصل الأول: المراد بالمعية الإلهية، وموقف المفسرين منها، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المراد بالمعية الإلهية، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى المعية، ومذاهب الناس في المراد بها.

المطلب الثاني: أقسام المعية الإلهية.

المطلب الثالث: العلاقة بين المعية والعلو.

المبحث الثاني: موقف المفسرين من آيات المعية، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: موقفهم من آيات المعية العامة.

المطلب الثاني: موقفهم من آيات المعية الخاصة.

الفصل الثاني: آيات المعية الإلهية، عرض ودراسة، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: آيات المعية العامة معانيها وآثارها.

المبحث الثاني: آيات المعية الخاصة معانيها وآثارها، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: معية النصرة والتأييد.

المطلب الثاني: معية الإعانة والهداية.

المطلب الثالث: معية الحفظ والحماية.

المطلب الرابع: آثار المعية الخاصة ووسائل تحقيقها.

الخاتمة: نتائج البحث، وتوصياته.

وبعد: فإني أتوجه بالحمد والثناء على الله – تعالى– بما هو أهله، حمداً يليق بجلاله وعظيم سلطانه، على نعمه التي لم تزل تترى، وآلائه التي لا أحصي لها عداً، ولا أعرف لها حداً.

كما أتوجه بالشكر لكل من أعان على هذا البحث برأيٍ، أو توجيهٍ، أو مشورةٍ، وأخص بالشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ممثلة في عمادة البحث العلمي، على دعمها لهذا البحث، وتبنيها له.

ثم إني أسأل الله تعالى الكريم رب العرش العظيم، أن يعصمني من سلطان الهوى، وغلبة الجهل، وخطل الرأي، كما أسأله – وهو البر الرحيم – أن يجعل هذا العمل خالصاً له – عز وجل – مقرباً مرضاته، في يوم لا

ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على المصطفى الأمين، وعلى آله وصحبه والطيبين.

الفصل الأول:

المراد بالمعية الإلهية، وموقف المفسرين منها.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المراد بالمعية الإلهية.

المبحث الثاني: موقف المفسرين من آيات المعية.

المبحث الأول:

المراد بالمعية الإلهية.

لبيان المراد بالمعية الإلهية سيكون البحث مقسماً على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى المعية، ومذاهب الناس في حقيقتها.

المطلب الثاني: أقسام المعية الإلهية.

المطلب الثالث: العلاقة بين المعية والعلو.

المطلب الأول: معنى المعية، ومذاهب الناس في المراد بها.

يدور كلام أهل اللغة في معنى المعية على أن أصلها من: مع، وهو اسم يدل على المصاحبة زماناً أو مكاناً، تقول: جاء زيد مع عمرو، وجلس زيد مع عمرو[(١)].

وقد تكون هذه المصاحبة حسية، كالمصاحبة زماناً أو مكاناً، وقد تكون معنوية مثل ما تقول: هما في الشرف معاً[(٢)].

هذا مدار معنى المعية في اللغة، أما المراد بها وحقيقتها؛ فقد اختلف فيه الناس على خمسة أقوال:

القول الأول: أن معية الله لخلقه معناها: علم الله التام بخلقه، واطلاعه عليهم سمعاً وبصراً، وإحاطته بهم، وقدرته عليهم، مع اعتقاد علوه على خلقه، واستوائه على عرشه، وهذا قول السلف من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان من أئمة الدين[(٣)].

---

(١) ينظر: المحكم، وتاج العروس، ولسان العرب، مادة: معع.

(٢) ينظر: مفردات الراغب الأصفهاني، مادة: مع.

(٣) ينظر: الأسماء والصفات للبيهقي(٢/ ٢٨٩) والشريعة للآجري ص:٢٧٥، ومجموع فتاوى ابن تيمية(٥/ ١٢٧) (٥/ ٢٣١) واجتماع الجيوش الإسلامية ص:٣٣.
ومما يحسن الإشارة إليه أن شيخ الإسلام ابن تيمية نص على أن معية الله تعالى لخلقه معية حقيقة، وقد يظن الظان أن قوله – رحمه الله – خلافُ قولِ السلف، حيث فسروا المعية بالعلم، وهذا الظن يندفع إذا علمنا أن قول شيخ الإسلام لا يخرج في حقيقته عن قول السلف؛ لأن السلف فسرو المعية – كما بينا – بأنها: علم الله التام بخلقه، وإطلاعه عليهم سمعاً وبصراً، وإحاطته بهم، وقدرته عليهم، مع اعتقاد علوه على خلقه، واستوائه على =

القول الثاني: أن معية الله تعالى لخلقة معية ذاتية، فذات الله - عز وجل - في كل مكان، مع إثبات علوه بذاته فوق عرشه، وهذا قول بعض طوائف من أهل التصوف[١].

القول الثالث: من نفى عن الله تعالى الوصفين، فنفى أن يكون الله داخل العالم أو خارجه، ونفى أن يكون قريباً منهم أو بعيداً عنهم، وهذا قول الجهمية النفاة[٢].

القول الرابع: أن الله تعالى موجود في كل مكان، وهذا قول أكثر المعتزلة[٣] ومتأخرة الأشاعرة[٤].

القول الخامس: أن الله حال بذاته في كل مكان، أي أنه عين وجود المخلوقات، وهذا قول الحلولية من غلاة المتصوفة، ومن وافقهم من

= عرشه، وهذه حقيقة المعية التي يشير إليها شيخ الإسلام، وقررها في مؤلفاته، يؤكد هذا أنه لم يبق بعد هذه المعاني التي قررها السلف إلا القول بالحلول في الأمكنة تعالى الله عن ذلك، إذ لا يتصور بعد هذه المعاني إلا القول بالحلول، وهذا ما لا يقوله - رحمه الله - وإنما نص على أنها معية حقيقة طرداً لطريقة أهل السنة في إثبات صفات الله على حقيقتها ورداً لطريقة أهل التأويل، والسلف فسروها بالعلم ونحوه دفعاً لقول أهل الحلول ومن وافقهم بأنه تعالى مع خلقه بذاته حالٌ فيهم، والله أعلم.

(١) ينظر: مقالات الإسلاميين(١/ ٧٤) والفصل في الملل(١/ ٩٦) ومجموع فتاوى ابن تيمية(٥/ ١٢٤).

(٢) ينظر: مقالات الإسلاميين ص٢١٤ ومجموع فتاوى ابن تيمية(٥/ ١٢٢).

(٣) ينظر: مقالات الإسلاميين ص٢١٢ والفصل في الملل(٢/ ٩٦).

(٤) ينظر: الآثار المروية في صفة المعية ص٧٨.

النجارية، والجهمية الحلولية[1].

وتفسير السلف لمعنى المعية هو الحق الذي يجب اعتقاده في معية الله تعالى لخلقه، وذلك لأمور منها:

الأول: أن لفظ المعيّة يعبر به في اللغة عن مطلق المصاحبة والاجتماع، دون أن يكون من لازمه ومقتضاه المخالطة في ذات المكان، أو المماسة والمحاذاة، وإنما يوجب في كل استعمال ما يناسبه، قال ابن تيمية في كلام دقيق نادر:" ذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت؛ فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة، من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال؛ فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى، فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا أو والنجم معنا"[2].

الثاني: أن ظاهر الآيات الدالة على معية الله تعالى، لا يجوز أن تدل على أكثر من هذا القدر الذي قرره السلف؛ لأنه ليس بعد العلم والإحاطة – سماعاً وبصراً وقدرة – إلا المخالطة في المكان والحلول فيه، وهذا مع أنه ممتنع على الله جل وعلا؛ فهو سبحانه منزه عنه، لما يلزم منه من مخالطة القاذورات والحلول فيها، تعالى الله عن ذلك، وهذا ما أشار إليه الإمام أحمد في رده على الجهمية، قال:" فقلنا لهم: أنكرتم أن يكون الله على العرش، وقد قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ ؟ وقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ

(١) ينظر: مقالات الإسلاميين ص٢١٥، ومجموع فتاوى ابن تيمية(٥/ ١٢٣).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية(٥/ ١٠٣).

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فقالوا: هو تحت الأرض السابعة كما هو على العرش، وفي السموات، وفي الأرض، وفي كل مكان، ولا يخلو منه مكان، ولا يكون في مكان دون مكان، وتلوا آية من القرآن: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ فقلنا: قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عِظَمِ الرب شيء، فقالوا أي مكان؟ فقلنا: أجسامكم وأجوافكم وأجواف الخنازير والحشوش والأماكن القذرة، ليس فيها من عظم الرب شيء، وقد أخبرنا أنه في السماء فقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾"[١].

الثالث: مما يقوي هذا المعنى؛ أن سياق آية المعية دال على أن المراد بالمعية هي العلم والإحاطة بالخلق، حيث جاءت متضمنة ذكر علم الله تعالى في صدرها وختامها، وهذا ما أشار إليه الإمام أحمد بن حنبل، لما سأله أبو طالب عن رجل قال: إن الله معنا، وتلا: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ قال: قد تَجَهْم هذا، يأخذون بآخر الآية، ويدعون أولها، هلا قرأت عليه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ فالعلم معهم، وقال في سورة: ق ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ فعلمه معهم"[٢].

الرابع: ومما يؤكد صحة فهم السلف لنصوص المعية؛ الأدلة المتنوعة المتكاثرة من النصوص السمعية، والأدلة العقلية والفطرية، الدالة على علو

(١) الرد على الجهمية والزنادقة ص٣٨. ينظر أيضا: شرح العقيدة الواسطية(١/ ٤٠٧).

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة(٣/ ١٥٩).

الله تعالى على خلقه، علو ذات، وعلو قهر وقدر، ففهم السلف للمعية يجمع بين إثبات معيته لخلقه وعلوه عليهم، وسيأتي – إن شاء الله تعالى – في المطلب الثالث تقرير هذا، والإشارة إلى شيء من تلك الأدلة.

الخامس: أن حقيقة من يقول: إن الله ليس بداخل العالم ولا خارجه، أنهم ينفون عن الله تعالى الوصفين المتقابلين اللذين لا يخلو موجود عن أحدهما(١).

ثم هؤلاء القائلون بنفي الوصفين المتقابلين، متناقضون في معنى المعية، مضطربون في تقرير عقيدتهم، قال ابن تيمية:" وكثير منهم يجمع بين القولين؛ ففي حال نظره وبحثه يقول بسلب الوصفين المتقابلين كليهما، فيقول: لا هو داخل العالم ولا خارجه، وفي حال تعبده وتألهه يقول: بأنه في كل مكان لا يخلو منه شيء"(٢).

السادس: قول السلف في معنى المعية، هو القول الذي أجمعوا عليه، واتفقت عليه كلمتهم، وقد حكى هذا الإجماع عدد من أئمة الإسلام، قال أبو عمر الطلمنكي :" أجمع المسلمون من أهل السنة، على أن معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ونحو ذلك من القرآن؛ أنه علمه، وأن الله تعالى فوق السموات بذاته، مستو على عرشه كيف شاء"(٣).

(١) ينظر: مجموع الفتاوى(٥/ ٢٢٧) واجتماع الجيوش الإسلامية ص٨٠ وشرح العقيدة الواسطية(١/ ٤٠٧).

(٢) مجموع الفتاوى(٥/ ٢٧٢).

(٣) ينظر: العلو للذهبي ص٢٤٦، ومجموع الفتاوى(٥/ ١٨٩) واجتماع الجيوش الإسلامية =

وقال ابن عبد البر:" علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل، قالوا في تأويل قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ هو على العرش، وعلمه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك أحد يُحتج بقوله"(١).

هذه أبرز الأدلة والمعاني التي بنى عليها أهل السنة قولهم في معنى المعية الإلهية، والمخالفون لهم في هذا الباب اعتمدوا على شبهتين رئيستين(٢):

الأولى: تمسكوا ببعض النصوص التي ظنوا أن ظاهرها يخالف ما ذهب إليه السلف، وهي ما ورد من آيات في معية الله لخلقه، وقربه منهم مثل: قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد:٤] وقوله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [النساء: ١٠٨] ومثل قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ

= ص٤٤.

(١) التمهيد(٧/ ١٣٧).

(٢) ينظر في هذا الشبهة: الشريعة للآجري ص٢٧٣، ٢٨٢، ومجموع الفتاوى(٥/ ١٠٢) واجتماع الجيوش الإسلامية ص٤٤.

﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦] وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٨٤] فقالوا: إن تفسير السلف لها بمعية العلم عدول عن الظاهر، وتأويل للكلام، فإن ظاهرها يقتضي أن يكون الله – تعالى – معه خلقه بذاته.

الجواب عليها: قد تقدم قريباً في تقرير قول السلف – رحمهم الله – أن اللغة لا توجب في أصلها أن يكون لفظ المعية يقتضي اجتماعاً أو مماسة، وإنما توجب مطلق المصاحبة، ثم يفهم معنى المعية بحسب الموضع الذي استعملت فيه، حيث توجب في كل موضع من المعاني ما لا توجبه في الموضع الآخر، قال ابن تيمية في تقرير هذا المعنى: " ثم هذه (المعية) تختلف أحكامها بحسب الموارد، فلما قال: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم؛ شهيد عليكم، ومهيمن عالم بكم، وهذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته... ولما قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ كان هذا أيضاً حقاً على ظاهره، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الاطلاع والنصر والتأييد... وقد يدخل على الصبي من يخيفه فيبكى، فيشرف عليه أبوه من فوق السقف فيقول: لا تخف؛ أنا معك، أو أنا هنا، أو أنا حاضر، ونحو ذلك، ينبهه على المعية الموجبة – بحكم الحال – دفع

المكروه؛ ... فلفظ "المعية" قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع، يقتضي في كل موضع أموراً لا يقتضيها في الموضع الآخر؛ فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها -وإن امتاز كل موضع بخاصية- فعلى التقدير ليس مقتضاها: أن تكون ذات الرب عز وجل مختلطة بالخلق، حتى يقال: قد صرفت عن ظاهرها"(١).

وإلى هذا المعنى يشير أبو حنيفة في جوابه عمن سأله عن معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ قال: "هو كما تكتب إلى الرجل: إني معك وأنت غائب عنه"(٢) أي أن لفظ المعية لا يلزم منه المخالطة.

ونحواً من هذا قال ابن قتيبة: "نحن نقول في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إنه معهم يعلم ما هم عليه، كما تقول للرجل وجّهته إلى بلد شاسع: احذر التقصير فإني معك، تريد أنه لا يخفى عليَّ تقصيرك، وكيف يسوغ لأحد أن يقول: إنه سبحانه بكل مكان على الحلول فيه مع قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ ومع قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ كيف يصعد إليه شيء هو معه، وكيف تعرج الملائكة إليه وهي معه، ولولا أن هؤلاء رجعوا إلى فطرهم، وما ركبت عليه خِلَقُهم من معرفة الخالق؛ لعلموا أن الله هو العلي، وهو الأعلى، وأن الأيدي ترتفع بالدعاء إليه، والأمم كلها عجميها وعربيها، تقول: إن الله في السماء، ما

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية(٥/ ١٠٣) وينظر - أيضا -: الشريعة للآجري ص٢٧٣.

(٢) الأسماء والصفات(٢/ ٢٣٨).

تُـركت على فطرها"[1].

ومما يؤكد فساد هذه الشبهة، صحة قول القائل: أنا مع المتقين، أو مع الصابرين، أو مع الصائمين، وإن كان في أقصى الأرض، فهو معهم في صفاتهم وأخلاقهم، قال ابن عطية معلقاً على قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] : " (مع) في هذه الآية؛ تقتضي الصحبة في الحال، والمشاركة في الوصف المقتضي للمدح"[2].

وأما استدلالهم بالآيات الدالة على القرب، فإنه قد اختلف المفسرون في متعلق القرب[3]: أيراد به الله تعالى أم ملائكته؟ وعلى القول بأن القرب هو قرب الله تعالى، فهو كما قال الحارث المحاسبي في جوابه عمن استدل بهذه الآيات: " ما قرب من الشيء ليس هو في الشيء"[4].

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٨٤] فالواجب حمل هذه الآية – كما يقول ابن عبد البر –: " على المعنى الصحيح المجتمع عليه، وذلك أنه في السماء إله معبود من أهل السماء، وفي الأرض إله معبود من أهل الأرض، وكذلك قال أهل العلم بالتفسير"[5].

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص١٨٢.

(٢) المحرر الوجيز(٤/ ٤٣٢).

(٣) سيأتي في المطلب الثالث – إن شاء الله – الكلام عن آيات القرب.

(٤) فهم القرآن ص٣٥٤ ونقله عنه في الفتاوى(٥/ ٧٠) .

(٥) التمهيد(٧/ ١٣٤) وأشار إلى نحوه الكرمي في أقاويل الثقات ص١٠٥.

وقال البيهقي في سياق الرد على الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٣] " وكيف ما كان، فلو أن قائلاً قال: فلان بالشام والعراق يملك، لدل قوله: يملك، على الملك بالشام والعراق، لا أنه بذاته فيهما"(١).

الشبهة الثانية: تعارض القول بالمعية، مع إثبات العلو لله، واستوائه على عرشه، فقالوا: لا يمكن القول بالمعية مع إثبات العلو لله تعالى؛ لأن العلو ينفي المعية ويعارضها.

الجواب عليها:

سيأتي الجواب عن هذه الشبة - إن شاء الله تعالى - في المطلب المتعلق بالعلاقة بين المعية والعلو، وبيان ما ينفي القول بتعارض إثبات مقتضاهما لله تعالى.

---

(١) الأسماء والصفات(٢/ ٣٤٣).

المطلب الثاني: أقسام المعية الإلهية[1].

تنقسم المعية إلى أقسام متنوعة بحسب الاعتبار والنظر، ويمكن حصرها في ثلاثة اعتبارات:

الأول: اعتبار العموم والخصوص.

الثاني: اعتبار تعلقها بالذات والفعل.

الثالث: اعتبار تعلقها بوصف أو شخص.

الاعتبار الأول: العموم والخصوص.

قسم أهل العلم المعية الإلهية من حيث العموم والخصوص إلى قسمين:

القسم الأول: المعية العامة.

ويراد بها: علم الله التام بجميع خلقه، واطلاعه عليهم سمعاً وبصراً، وإحاطته بهم، وقدرته عليهم.

ولأنها تشمل الخلق جميعاً- مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم - سُميت معية عامة، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

القسم الثاني: المعية الخاصة.

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى(٥/ ٢٢٧) وشرح العقيدة الواسطية(١/ ٤٠٠).

وهي قدر زائد على معنى المعية العامة، إذ تدل مع العلم والإحاطة؛ على معنى النصرة والحفظ والتأييد والتوفيق، ونحو ذلك من المعاني المناسبة للسياق الذي وردت فيه.

وهذه المعية تكون لمن ذُكِرت له، ولهذا سُميت معية خاصة، مثل معية الله تعالى للصابرين، ومعيته للمتقين ونحو ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

الاعتبار الثاني: تعقلها بذات الله تعالى أو فعله.

تنقسم المعية الإلهية باعتبار تعلقها بذات الله – عز وجل – أو فعله، إلى قسمين:

القسم الأول: صفة ذاتية لله تعالى، وهي المعية العامة؛ لأنه تعالى لم يزل مع خلقه علماً وإحاطة وقدرة وسلطاناً.

القسم الثاني: صفة فعلية، وهي المعية الخاصة؛ لأنها معية تابعة لمشيئة الله تعالى، متعلقة بسبب، فإذا وجد السبب الـمُقتضي لها تحققت، مثل: معية الله للصابرين والمتقين، تتحقق إذا وُجِد الصبر والتقوى فيهم، فيكون الله معهم حِفظاً وتوفيقاً وتأييداً ونحو ذلك من المعاني المناسبة للسبب المقتضي لها.

الاعتبار الثالث: تعلقها بوصف أو بذاتٍ.

تنقسم المعية الإلهية باعتبار كونها تتعلق بوصف أو بذات، إلى قسمين:

القسم الأول: معية تتعلق بوصف ما، وهي معية إلهية خاصة بمن

قام به وصف خاص، مثل من تحقق فيه وصف التقوى أو الإحسان، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

القسم الثاني: معية تتعلق بذات معينة، وهي معية إلهية خاصة بذات معينة من خلقه – عز وجل – مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾ [التوبة: ٤٠] فهي معية خاصة بالنبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، ومثل قوله تعالى في شأن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦].

وأخصُ معيةٍ من هذا النوع معية الله تعالى لموسى عليه السلام المشار إليها في قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢].

وهذا النوع من المعية هو أخص أنواع المعية الإلهية، لأنها معية مخصوصة بذات معينة، ولهذا فلم تثبت في القرآن الكريم إلا لهؤلاء الأربعة الكرام: محمد وموسى وهارون عليهم الصلاة السلام، وأبو بكر رضي الله عنه.

ونلحظ أن هذا القسم بنوعيه يتعلق بالمعية الإلهية الخاصة دون المعية العامة؛ لأنها معية خاصة بمن هي له، سواء كان ذاتاً معينة أو صفة ما.

المطلب الثالث: العلاقة بين المعية والعلو.

من المسائل الجديرة بالبحث في موضوع المعية الإلهية؛ بيان العلاقة بينها وبين إثبات العلو الذاتي لله تعالى؛ لأن إثبات صفة العلو يعين على فهم حقيقة المعية، وما تدل عليه، ثم إن بعض من أنكر علو الله بذاته على خلقه، يحتج بنصوص المعية على إنكاره لتوهم تعارضهما، وعدم إمكان الجمع بينهما[١] ولهذا سيكون الكلام عن هذه المسألة في فقرتين:

الأولى: إثبات علو الله تعالى ذاتاً وصفة.

الثانية: الجمع بين النصوص الدالة على صفة المعية وصفة العلو لله عز وجل.

- **الفقرة الأولى: إثبات علو الله تعالى ذاتاً وصفة[٢].**

من المتقرر عند أهل السنة والجماعة من سلف هذه الأمة ومن تبعهم بإحسان؛ إثبات علو الله تعالى على خلقه، علو ذات وعلو قهر وقدر، وأدلتهم على ذلك كثيرة متنوعة، منها ما هو سمعي، ومنها ما هو عقلي،

---

(١) مما يدل على ذلك ما ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن عند آية سورة الحديد(١٧/ ٢٣٧) حيث يقول:" وقد جمع في هذه الآية بين ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ وبين ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾ والأخذ بالظاهرين تناقض؛ فدل على أنه لا بد من التأويل، والإعراض عن التأويل اعتراف بالتناقض".

(٢) ينظر: الأسماء والصفات(٢/ ٣٠٣) والشريعة للآجري ص٢٧٧ ومجموع الفتاوى(٥/ ١٣٦) واجتماع الجيوش الإسلامية ص٢٢ وشرح العقيدة الطحاوية ص٣٨١.

ومنها ما هو فطري.

فأما السمعي؛ فنصوص كثيرة من الكتاب والسنة، دالة على إثبات علو الله تعالى على خلقه، واستوائه على عرشه، منها ما جاء النص فيه صريحاً على علوه عز وجل، كقوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٨] .

ومنها ما ورد النص فيها على صعود الأشياء له، وعروجها إليه، كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠] وقوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤] وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

ومنها ما ورد النص فيها على نزول الشيء منه تعالى، كقوله عز وجل: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١].

ومنها التصريح باستوائه على عرشه كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥].

وأما الدليل العقلي؛ فقد أشار إليه ابن أبي العز بقوله: " علوه سبحانه وتعالى – كما هو ثابت بالسمع – ثابت بالعقل والفطرة، أما ثبوته بالعقل، فمن وجوه:

أحدها: العلم البديهي القاطع بأن كل موجودين، إما أن يكون أحدهما سارياً في الآخر، قائماً به كالصفات، وإما أن يكون قائماً بنفسه بائناً

من الآخر.

الثاني: أنه لما خلق العالم، فإما أن يكون خلقه في ذاته، أو خارجاً عن ذاته، والأول باطل؛ أما أولاً: فبالاتفاق، وأما ثانياً: فلأنه يلزم أن يكون محلاً للخسائس والقاذورات، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. والثاني: يقتضي كون العالم واقعاً خارج ذاته، فيكون منفصلاً، فتعينت المباينة؛ لأن القول بأنه غير متصل بالعالم، وغير منفصل عنه؛ غير معقول.

الثالث: أن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه؛ يقتضي نفي وجوده بالكلية؛ لأنه غير معقول، فيكون موجوداً إما داخله وإما خارجه، والأول باطل، فتعين الثاني، فلزمت المباينة"(١).

وأما الدليل من الفطرة؛ فقد أشار إليه أبو الحسن الأشعري، يقول: "ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء؛ لأن الله تعالى مستو على العرش الذي هو فوق السماوات، فلولا أن الله عز وجل على العرش؛ لم يرفعوا أيديهم نحو العرش"(٢).

ولهذه الأدلة كلها؛ فقد أجمع السلف كلهم - قبل ظهور أهل البدع - على إثبات صفة العلو لله تعالى على خلقه، قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سألت أبا حاتم وأبا زرعة الرازيين - رحمهما الله - عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقدان من ذلك، فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار، حجازاً، وعراقاً، ومصراً،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٨٩.

(٢) الإبانة ص٤٠.

وشاماً، ويَمَناً، فكان من مذهبهم... وأن الله على عرشه، بائن من خلقه، كما وصف نفسه، بلا كيف، أحاط بكل شيء علماً"[(١)].

ومع هذه الأدلة المتنوعة فإنه كما يقول ابن تيمية – في كلام مَتِين قلَّ نظيره –:" ليس في كتاب الله، ولا في سنة رسوله، ولا عن أحد من سلف الأمة، لا من الصحابة، ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف؛ حرف واحد يخالف ذلك، لا نصاً ولا ظاهراً ... فكيف يجوز على الله تعالى، ثم على رسوله، ثم على خير الأمة، أنهم يتكلمون دائماً بما هو إما نص وإما ظاهر في خلاف الحق، ثم الحق الذي يجب اعتقاده لا يبوحون به قط، ولا يدلون عليه، لا نصاً ولا ظاهراً، حتى يجيء أنباط الفرس، والروم، وفروخ اليهود والنصارى، والفلاسفة، يبينون للأمة العقيدة الصحيحة، التي يجب على كل مكلف أو كل فاضل أن يعتقدها "[(٢)].

- **الفقرة الثانية: الجمع بين صفة المعية وصفة العلو لله عز وجل**[(٣)].

من الشبه التي تمسك بها المخالفون لأهل السنة في صفة المعية والعلو، زعمهم تعارض ظواهر النصوص الواردة في هاتين الصفتين؛ مما يوجب القول بالتأويل، وصرفها عن ظاهرها، ولهذا فالجمع بينهما، ونفي

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة(١/ ١٧٦).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية(٥/ ١٥).

(٣) للشيخ ابن عثيمين كلام حسن في القواعد المثلى ص٧٧ في الجمع بين هاتين الصفتين، أشرت إلى بعضه هنا.

التعارض عنهما، يَرُد قولهم، ويبطل حجتهم.

وقد أشار إلى وجه الجمع بينهما أئمة السلف، ومختصر كلامهم في الجمع بين الصفتين، أن صفة المعية لا توجب مخالطة للخلق، ولا مماسة لهم، بل هو تعالى معهم بعلمه واطلاعه عليهم، وإحاطته بهم، وقدرته عليهم، ونفوذ أمره فيهم، مع علوه عليهم، واستوائه على عرشه.

وإنما جاء توهم التعارض من تصور أن المعية توجب مخالطة المخلوق، على نحو يعارض علوه - عز وجل - وهذا ما لا تدل عليه ظواهر النصوص من الكتاب والسنة، ولا توجبه لغة العرب التي نزل بها القرآن، قال ابن تيمية:" وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت؛ فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة، من غير وجوب مماسة، أو محاذاة عن يمين أو شمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني؛ دلت على المقارنة في ذلك المعنى، فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، أو والنجم معنا، ويقال: هذا المتاع معي لمجامعته لك وإن كان فوق رأسك، فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة"[1].

فإذا أمكن تحقق المعية من غير مخالطة في حق مخلوق مثل: القمر والنجم ونحوهما، ففي حق الخالق المحيط بكل شيء من باب أولى.

ومن كان عالماً بك، مطلعاً عليك سمعاً وبصراً، محيطاً بك قُدْرَةً وأمراً؛ فهو معك وإن كان فوقك، فالله تعالى مع خلقه علماً وإحاطة وقدرة،

(١) ينظر: مجموع الفتاوى(٣/ ١٤٣).

وهو فوق خلقه مستو على عرشه.

ثم هَب أن الجمع بين الوصفين مما يستحيل وقوعه في حق الخلق؛ فإن ما يجب للخالق لا يقاس بخلقه، فهو عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فما يمتنع على المخلوق لا يلزم امتناعه على الخالق جل وعلا، كيف والله تعالى قد جمع بينهما لنفسه في كتابه الكريم، المنزه عن كل نقص، المعصوم من التناقض والاضطراب، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

المبحث الثاني:
موقف المفسرين من آيات المعية:

هذا المبحث مخصص للإبانة عن مواقف المفسرين من آيات المعية بنوعيها العامة والخاصة، ولهذا سنورد أقوال المفسرين، ونضرب الأمثلة من تفاسيرهم، بحسب ما يقتضيه المقام، مع الاختصار على ما يحقق المقصود، ويكشف عن المراد قدر الإمكان، وقد جعلت هذا المبحث في مطلبين:

المطلب الأول: موقفهم من آيات المعية العامة.

المطلب الثاني: موقفهم من آيات المعية الخاصة.

المطلب الأول: موقفهم من آيات المعية العامة.

ورد في القرآن الكريم، الإشارة إلى معية الله تعالى لخلقه المعية العامة، في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: في سورة النساء، قال تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ٤].

الموضع الثاني: في سورة الحديد، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤].

الموضع الثالث: في سورة المجادلة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧].

وبعد النظر في كلام المفسرين على هذه الآيات الكريمة، يمكن أن نُبين موقفهم من خلال عدد من النقاط:

أولاً: نهج غالب المفسرين على الاختصار في الكلام عن آيات المعية، وذلك إما لأن المسألة متقررة عندهم، لا تحتاج إلى مزيد نظر وبحث، وإما مراعاة لما قَصَدَه بعضهم من الاختصار في أصل الكتاب.

ونستثني من هذا تفاسير الصوفية، فإنهم قد توسعوا في الكلام عن معنى هذه الآيات، خصوصاً آية سورة الحديد وسورة المجادلة، وذلك بذكر بعض الإشارات الصوفية، والمعاني الروحية، جرياً على طريقتهم، لِمَا للمعية من المعاني الخاصة عندهم، وينظر في هذا ما ذكره البقلي والقشيري عند آية سورة الحديد والمجادلة[١].

ثانياً: قرر غالب المفسرين معنى المعية الإلهية عند آية سورة الحديد، وأما آية سورة النساء وآية سورة المجادلة؛ فإنهم يشيرون إلى المعنى فيهما إجمالاً كما صنع البغوي والطبرسي[٢]، وبعضهم ترك الكلام حتى عن المعنى كما فعل الماوردي[٣].

وبعضهم ربما قرر المعنى عند آية سورة المجادلة، وسكت عنه في آية سورة الحديد كما فعل الزمخشري[٤].

على أن بعض المفسرين لم يُشر إلى معنى المعية في هذه المواضع الثلاثة، كما فعل الشنقيطي، مكتفياً بالإحالة على ما قرره عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

ثالثاً: أجمعوا على تفسير معنى معية الله تعالى لعباده بالعلم، على اختلاف مذاهبهم، بل بعضهم حكى الإجماع على هذا التفسير، كابن عطية

(١) ينظر: عرائس البيان(٢/ ٥٤٥) ولطائف الإشارات(٥/ ٣٥٦).

(٢) ينظر: معالم التنزيل(٦/ ٣٢٣) ومجمع البيان(٨/ ٣٤٥).

(٣) ينظر: النكت والعيون(٤/ ٢٤٤).

(٤) ينظر: الكشاف(٤/ ٦٣).

والرازي وابن جُزي، وأشار إليه ابن كثير(1).

ونشير هنا إلى أن لبعض الصوفية في تقرير المعية الإلهية كلاماً مجملاً مبهماً، ربما أوهم معان فاسدة، ينزه الرب تبارك وتعالى عن مثلها، ومن أمثلة ذلك ما ذكره البقلي عند آية سورة الحديد(2).

رابعاً: والمفسرون وإن أجمعوا على تفسير المعية هنا بالعلم، فإن كثيراً منهم جعل التعبير بالمعية هنا من باب المجاز والتمثيل الدال على كمال العلم والقدرة، كما قرره الواحدي وابن عطية وأبو حيان وابن عاشور وغيرهم(3)، وهذا مفرق طرق بين طريقة السلف وطريقة من خالفهم من سائر الطوائف، فإن السلف – كما قررنا عند الكلام عن مذاهب الناس في معنى المعية – حملوا الآية على ظاهرها، ولا يقولون بأنها من المجاز والتمثيل، ووجه ذلك يظهر في ثلاثة أمور:

1. أنهم يرون أن معنى المعية – على ما سبق تقريره – تدل في الأصل على مطلق المصاحبة، وتفسر بحسب من تضاف إليه، فمعية كل أحد بحسبه.
2. أن معية الله تعالى لخلقه لا يمكن بحال أن يفهم منها أكثر مما قرره أئمة

(1) ينظر: المحرر الوجيز(8/ 215) ومفاتيح الغيب (29/ 187) والتسهيل(2/ 132) وتفسير القرآن العظيم(4/ 503).

(2) ينظر: عرائس البيان(2/ 545).

(3) ينظر: البسيط(21/ 287) والمحرر الوجيز(8/ 287) والبحر المحيط(8/ 217) والتحرير والتنوير(27/ 364).

السلف من معنى علمه – عز وجل – وإحاطته وقدرته على خلقه، ولم يبق بعد هذه المعاني إلا القول بحلول الله في المخلوقات تعالى الله عن ذلك.

٣. أن سياق الآية الكريمة دال على معنى العلم، فسياقها يشير إلى علم الله تعالى بخلقه وأحاطته بهم، حيث ذُكر العلم في أول الآيات وآخرها.

ولهذه المعاني لا يصح أن يقال: أن دلالتها على العلم والقدرة من باب المجاز، بل هذه الآيات في حقيقتها دالة على العلم والقدرة والإحاطة.

خامساً: بعض المفسرين ربما نص على بعض أقوال السلف مستشهداً بها على ما تدل عليه من معية الله تعالى لخلقه، كما فعل الطبري، ومكي بن أبي طالب، وابن عطية، والألوسي[١].

سادساً: درج غالب المفسرين على تقرير معنى المعية، دون الإشارة إلى قول المخالف، نظراً لأن المسألة محل إجماع، والمخالف فيها لا يكاد يُعرف، إلا ما كان من القرطبي فقد أشار إلى قول من خالف في معنى المعية من الجهمية والمعتزلة، عند كلامه عن آية سورة النساء[٢].

على أن بعضهم أشار إلى بعض الخلاف الذي لا يتعلق بأصل المعنى، بل بمسائل وثيقة الصلة به، كما فعل البقاعي[٣]، حيث ذكر شُبَه

---

(١) ينظر: جامع البيان(١٢/ ١٣) والهداية(٦/ ٥٤٦) والمحرر الوجيز(٨/ ٢٨٧) وروح المعاني(٨/ ٢١٧).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن(٧/ ١١٩).

(٣) ينظر: نظم الدرر(١٩/ ٢٥٩).

المخالفين وناقش أقوالهم، مستشهداً بكلام السلف، وكلام ابن تيمية في هذا الباب خصوصاً.

سابعاً: بعض من كان على طريقة السلف من المفسرين، جمع بين تقرير معنى المعية والتأكيد على إثبات صفة علو الله على خلقه واستوائه على عرشه؛ لأن المخالفين للسلف وإن وافقوهم على حمل معنى المعية على العلم؛ فقد خالفوهم في اعتقاد علو الله على خلقه واستوائه على عرشه، وهذا ما حمل بعض المفسرين على الجمع بين الوصفين لله تعالى، تأكيداً على نفي تعارضهما، كما فعل الطبري ومكي بن أبي طالب، قال ابن جرير عند آية سورة الحديد:" وهو شاهد لكم أيها الناس أينما كنتم، يعلمكم ويعلم أعمالكم، ومتقلبكم ومثواكم، وهو على عرشه فوق سمواته السبع"(١).

ثامناً: جعل بعض المفسرين آيات المعية أصلاً في باب التأويل، لحقائق صفات الله تعالى، وغيرها مما يدخل في معناها من المغيبات، اعتماداً على أن آيات المعية صُرفت عن ظاهرها الذي يقتضي أن الله تعالى مع خلقه بذاته في كل مكان، وإذا جاز الصرف في موضع جاز فيما سواه، وهذا أشار إليه كثير من الأشاعرة أو من تأثر بهم، كالواحدي، وابن عطية، والرازي، وأبي حيان، وابن عادل، قال الواحدي:" وهذا حجة على من ترك تأويل قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وأجراه على الظاهر، إذ لا بد من التأويل في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ولا يجوز إجراؤه على الظاهر حتى يعتقد

(١) جامع البيان(١١/ ٦٧٠) وينظر: الهداية(٦/ ٥٤٦).

أنه مع كل واحد في مكانه وجهته، وإذا جاء التأويل في بعض جاز في الكل"[١].

وهذا الاحتجاج قد سبق الإشارة إليه، والإجابة عليه عند إيراد الشُبه التي تمسك بها من خالف السلف في معنى المعية الإلهية، وأن مبنى هذه الشبهة قائم على توهم أن المعية توجب في أصل معناها المخالطة والمماسة، وقررنا هناك أنها لا توجب في أصلها أكثر من مطلق المصاحبة، ثم توجب في كل موضع من المعاني بحسب من أُضيفت إليه.

على أن الألوسي قد تعقب هذا الإلزام، حيث قال بعد الإشارة إلى هذا المعنى:" وأنت تعلم أن الأسلم ترك التأويل، فإنه قول على الله تعالى من غير علم، ولا نؤوّل إلا ما أوّله السلف، ونتبعهم فيما كانوا عليه، فإن أوّلوا أوّلنا، وإن فوضوا فوضنا، ولا نأخذ تأويلهم لشيء سلماً لتأويل غيره"[٢].

تاسعاً: بعض المفسرين يعمد - بعد تقرير المعنى - إلى الإشارة إلى ما توحي به الآيات، من معان إيمانية تؤثر في سلوك المؤمن، وتعزز فيه جانب الرقابة والخشية من الله تعالى، لعلمه باطلاعه عليه، كما فعل ابن كثير

(١) التفسير البسيط(٢١/ ٢٧٧).

تنبيه: كذا في الأصل: جاء، ولم يعلق عليه المحقق، والأظهر: جاز، مراعاة لجواب الشرط بعده: جاز في الكل، وهذه عبارة مشهورة يكثر ذكرها على هذا النحو.

(٢) روح المعاني(١٥/ ٢٥٧).

عند آية سورة الحديد[1]، فبعد تقريره لمعنى معية الله لخلقه، ساق أحاديث متعددة عن النبي ﷺ تتعلق بخشية الله تعالى، وتعظيم مقامه – عز وجل – بل ونراه يذكر أبيات من الشعر تؤكد هذا المعنى.

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم(٤/ ٤٧٥).

المطلب الثاني: موقفهم من آيات المعية الخاصة.

ورد في القرآن الكريم، الإشارة إلى معية الله تعالى لخلقه المعية الخاصة، في سبعة عشر موضعاً، هي بحسب ترتيبها في المصحف:

الموضع الأول: في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣].

الموضع الثاني: في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤].

الموضع الثالث: في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة:٢٤٩].

الموضع الرابع: في سورة المائدة، عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

[المائدة:١٩].

الموضع الخامس: في سورة الأنفال، عند قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢].

الموضع السادس: في سورة الأنفال، عند قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩].

الموضع السابع: في سورة الأنفال، عند قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

الموضع الثامن: في سورة الأنفال، عند قوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٦٦].

الموضع التاسع: في سورة التوبة، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٣٦].

الموضع العاشر: في سورة التوبة، عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ

فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

الموضع الحادي عشر: في سورة التوبة، عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣].

الموضع الثاني عشر: في سورة النحل عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

الموضع الثالث عشر: في سورة طه، عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦].

الموضع الرابع عشر: في سورة الشعراء، عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:١٥].

الموضع الخامس عشر: في سورة الشعراء، عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢].

الموضع السادس عشر: في سورة العنكبوت، عند قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩].

الموضع السابع عشر: في سورة محمد، عند قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟

وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥].

وبعد النظر في كلام المفسرين على هذه الآيات الكريمة، يمكن أن نبين موقفهم من خلال عدد من النقاط:

أولاً: لم يتبع المفسرون منهجاً واحداً فيما يتعلق ببيان معنى المعية في هذه الآيات، بل وجدناهم مختلفين؛ فمنهم من تكلم عن معنى المعية فيها وبيّن المراد بها، ومنهم من أغفلها.

وهذا الاختلاف لم يقتصر على المفسرين فيما بينهم، بل حتى المفسر الواحد منهم، قد يتكلم عن معنى المعية في موضع، ويغفل بيانها في موضع آخر فلا يتكلم عنه، ولم يظهر لي سبب ذلك، وقد وقع هذا عند كثير من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين على نحو لا نحتاج معه إلى ضرب مثال عليه.

ثانياً: ذهب عامة المفسرين إلى أن المعية في هذه الآيات، تفيد قدراً زائد عن معنى المعية العامة، ولهذا وجدناهم يشيرون إلى لازم خاص لهذا النوع من المعية، ولم أجد خلافاً في شيء من هذه المواضع كلها إلا خلافاً للرازي حيث جعل المعية عامةً، وتبعه عليه ابن عادل صاحب اللباب،ورجحه الألوسي، وذلك في آية سورة المائدة عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

﴿ تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة:١٩] وسيأتي – إن شاء الله – بيانه في الفصل القادم[١].

ثالثاً: وكما ذهبوا إلى أنها تفيد قدراً زائداً على معنى المعية العامة، فقد ذهب عامتهم – أيضاً – إلى معاني محددة تفسر بها المعية الخاصة بحسب موردها، وإذا تأملنا كلامهم في ذلك نجده يدور على ثلاثة معاني:

الأول: النصر والتأييد.

الثاني: الإعانة والهداية.

الثالث: الحفظ والحماية.

وربما عبروا بألفاظ مختلفة، غير أنها قريبة المعنى من هذه الألفاظ.

على أن المفسرين وإن ذهبوا إلى ذلك؛ فقد وجدت الرازي – أيضاً – عمد إلى تفسير المعية في آية النحل، بمعنى لم أجده عند غيره، إلا ما كان من مُتابعة ابن عادل له، وقد عُلم أنه كثير النقل عنه جداً، قال الرازي: "﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ معيته بالرحمة والفضل والتربية"[٢].

وقريباً منه ما ذكره الخازن، حيث قال: "وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة"[٣].

وهذه المعاني – في حقيقة الأمر – تدخل ضمن معاني الحفظ والهداية، وتلزم عليها، ولكن التعبير بهذا اللفظ لم أجده لغيرهما.

---

(١) في المطلب الثاني من المبحث الثاني.

(٢) مفاتيح الغيب(١٩/ ١١٤)، وبنصه في اللباب(١٢/ ١٩٢).

(٣) تفسير الخازن(٣/ ١٠٨).

رابعاً: لم يَعْتَنِ المفسرون في الجملة بتحرير المعاني الثلاثة التي تُفسر بها المعية الخاصة – التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة – بحسب سياقها في الآيات، بمعنى لم أجد لهم فيما وقفت عليه من كلامهم نصاً على ضابط تحمل الآية عليه، فلم أجد ضابطاً لتفسير المعية بالنصر مثلاً أو معنى الحفظ، حيث نجد منهم من يذكر أكثر من معنى في الآية الواحدة، كما فعل السمرقندي عند آية سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ﴾ [المائدة:١٩] قال: "﴿إِنِّى مَعَكُمْ ۖ﴾ أي: معينكم وحافظكم وناصركم"[١].

نعم قد يقال: إن الضابط هو السياق، ولكن يبقى أن اختيار المعاني في السياق غير منضبط، ويظهر لي أن سبب عدم اعتناء عامة المفسرين بتحرير معنى المعية الخاصة في كل موضع؛ أن تلك المعاني متقاربة في المعنى والدلالة، بل وبين بعضها تلازم ظاهر.

ومن أكثر الآيات وضوحاً على تداخل ما بين هذه المعاني، وعدم عناية المفسرين بها آية سورة النحل عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] فقد اختلفت عبارات المفسرين في بيان معنى المعية فيها، وتنوعت تنوعاً كبيراً، على نحو لا تجده في غيرها، – كما سيأتي بيانه في الفصل القادم إن شاء الله – ومرجع ذلك

(١) تفسير السمرقندي(١/ ٤٦٠).

بالإضافة إلى ما ذكرته من تقارب المعاني الثلاثة، أن الآية تحتمل هذه المعاني جميعاً، فكل من قال بمعنى منها له نظر في الآية سديد.

خامساً: تميز كلام المفسرين عن آيات المعية الخاصة بالاختصار الشديد، ولعل مرجع ذلك إلى وضوح المعنى من سياق الكلام بما يغني عن التوسع في تقريره.

غير أنّا وجدنا بعضهم يتوسع في المواضع التي قد تكون محل إشكال، فيورد الإشكال، ويذكر الأقوال، ومن أبرز من له تلك العناية الألوسي، وانظره مثلاً عن قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:١٥] وقوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢](١).

سادساً: قلّ من المفسرين من يشير إلى قول المخالفين أو يرد عليهم، إلا ما كان من الرازي، فقد أشار إلى شيء من ذلك عند قوله تعالى: ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: ١٩٤] حيث قال:" ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي: بالمعونة والنصرة والحفظ والعلم، وهذا من أقوى الدلائل على أنه ليس بجسم، ولا في مكان، إذ لو كان جسماً لكان في مكان معين، فكان إما أن يكون مع أحد منهم، ولم يكن مع الآخر، أو يكون مع كل واحد من المؤمنين جزء من أجزائه وبعض من

(١) ينظر: روح المعاني(١١/ ١٢٧).

أبعاضه، تعالى الله عنه علوا كبيراً "[1].

وكلامه في نفي المكان إن كان يقصد به نفي أن المكان يحويه – عز وجل – فحق، ولكن يعبر عنه بالألفاظ الشرعية، وإن كان قصده نفي جهة العلو – كما هو قول الأشاعرة – فهو باطل، وقد قررنا في مطلب مستقل – في المبحث السابق – أدلة إثبات العلو لله تعالى إجمالاً.

سابعاً: من المفسرين من يشير إشارات سريعة إلى شيء من آثار المعية ودلالاتها، بحسب السياق الذي وردت فيه، وكان غالب المعاني التي يذكرها المفسرون لا تخرج عن أحد أمرين: إما أن تكون دالة على الترغيب أو الترهيب، وذلك بأن يستشعر المؤمن معية الله تعالى له، فيحمله ذلك على الرغبة بما يلزم من تلك المعية من الحفظ والنصرة والهداية، أو يرهب من معية الجليل له، فيحمله ذلك على تقواه، وحذار مخالفة أمره، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره البقاعي عند قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤] قال:" ومن كان الله معه أفلح كل الفلاح، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، قال الحرالي: ففي ضمنه إشعار وتطريق لمقصد السماح الذي هو خير الفضائل، من وصل القاطع، والعفو عن الظالم، ولما كان في هذه التقوى خروج عن حظ النفس؛ أعلمهم أنه تعالى يكون عوضاً لهم من أنفسهم، بما اتقوا وداوموا على التقوى، حتى

---

(١) مفاتيح الغيب(٥/ ١١٥).

كانت وصفاً لهم فأعلمهم بصحبته لهم، انتهى"[١].

على أن بعضهم ربما استنبط معان أخرى كما فعل ابن سعدي، والطبطبائي عند قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة:٣٦] وسيأتي في المطلب الثاني من المبحث القادم - إن شاء الله تعالى - إيراد أمثلة لتلك الاستنباطات عند دراسة آيات المعية.

ثامناً: أشار بعض المفسرين - صراحة - إلى أن هذا النوع من المعية مجاز، ثم بين نوع المجاز فيها بحسب موردها، كما قرر الطوسي عند قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٦٦] وكذا قال ابن عاشور وكلامه فيه أوضح وأصرح، حيث قال عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ﴾ [المائدة١٩] "والمعيّة في قوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ ۖ﴾ معيّة مجازية، تمثيل للعناية والحفظ والنصر"[٢].

وهذا منه - عفا الله عنه - تأويل لا دليل عليه، وإنما حمله عليه هو وغيره؛ توهم أن المعية تقتضي مخالطة أو مماسة في مكان، وقد قررنا - في

(١) نظم الدرر(٣/ ١١٨).

(٢) التحرير والتنوير(٦/ ١٤١).

وهذا لا يقتصر على ابن عاشور، بل كل من خالف السلف يقول بهذا، وإنما نصصت عليه لأنه ذكر ذلك صراحة.

المبحث السابق عند بيان مذاهب الناس – فساد هذا الظن، وأن آيات الكتاب العزيز لا تدل عليه، ولا تلزم منه؛ لأن المعية في أصلها تدل على مطلق المصاحبة، ثم تُفسر مع كل معنى بحسبه، وإذ صح هذا؛ فإنها تدل في ظاهرها على معية الله تعالى لخلقه بما يليق بجلاله على ما قرر المفسرون، وتصان عن الظنون الكاذبة.

الفصل الثاني:
آيات المعية الإلهية عرض ودراسة.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: آيات المعية العامة، معانيها وآثارها.

المبحث الثاني: آيات المعية الخاصة، معانيها وآثارها.

المبحث الأول: آيات المعية العامة، معانيها وآثارها.

في هذا المبحث نتناول بالدراسة آيات المعية العامة، مُراعياً في ذلك ترتيب المصحف:

الآية الأولى: في سورة النساء: قال تعالى: ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا** ﴾ [سورة النساء: ١٠٨].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

السورة الكريمة تتضمن عدداً كبيرا من الموضوعات التي يدور غالبها حول رعاية شؤون المجتمع المسلم نُظُماً وآداباً، وتحديد علاقات أفراده الداخلية والخارجية(١)، ولهذا فالتشريعات الواردة في السورة تأخذ الطابع الجماعي، بمعنى أنها شرائع لا تخاطب الفرد مستقلاً عن باقي المجتمع، بل تتوجه له في ضمن الإطار الجماعي، بحيث يمتثلها في ظل وجود مجتمع يعيش فيه.

ومن أحد الموضوعات المهمة التي عرضت لها السورة الكريمة، موضوع النفاق والمنافقين، هو موضع يأتي في صميم رعاية المجتمع المسلم وحماية نسيجه، وتحديد طبيعة العلاقة بين أفراده، ولهذا ذكرت السورة كثيراً من أخلاقهم وصفاتهم، وأبانت عن منهج التعامل معهم، وكيف يتقي المجتمع المسلم خطرهم، ويدرأ كيدهم.

---

(١) ينظر: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ص٣٩.

وفي هذا السياق وردت هذه الآية الكريمة، وقد سبقتها آيات تضمنت توجيهاً ربانياً ببيان مهمة النبي ﷺ، من الحكم بين الناس في كل شؤونهم، بالحق الذي أنزله الله عليه، وأراه له، ونهاه عن المخاصمة عن أهل الخيانة، والمجادلة عنهم، ثم تتابعت الآيات تشير إلى بعض أخلاق المنافقين وطبائعهم، من المكر والخديعة، وإظهار خلاف ما يبطنون، تلبيساً على المؤمنين، وإيضاعاً فيهم، ومن هنا ناسب الإشارة إلى معية الله تعالى لخلقه وعلمه التام بهم وقدرته عليهم، حتى لا يظن أولئك المنافقون أنهم غائبون عن الله، مستخفون عنه.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

هذه الآية الكريمة دالة على معية الله تعالى لخلقه المعية العامة، علماً وقدرة، وإحاطة بهم سمعاً وبصراً، وكل أئمة التفسير حملوا المعنى على معية العلم والإحاطة، ولا يخرجها عن المعية العامة ما فيها من تخصيص بعض الخلق - الذين يختانون أنفسهم - بالمعية هنا؛ لأنها لا تدل على أكثر مما تدل عليه المعية العامة للخلق جميعاً، ولا يلزم عليها أكثر مما يلزم على المعية العامة.

ولهذا فقد خُتمت الآية الكريمة بما يقرر هذا المعنى ويدل عليه، من التأكيد على كمال علم الله تعالى، وإحاطته بهم، فقال عز وجل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴾.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: ذِكْرُ معية الله تعالى في هذه الآية؛ مناسب لمضمون الآية

والسياق الذي وردت فيه، ذلك أن من أخص صفات أهل النفاق الاستتار بنفاقهم، والخديعة بإسلامهم، والخيانة في أفعالهم، وهذه كلها أمور تخفى على الناس، فناسب ذِكرُ معية الله تعالى، تنبيهاً على أنهم وإن خدعوا الناس بإيمانهم، وخانوا المؤمنين بأفعالهم، فلا يقدرون على خيانة الله تعالى، ولا التخفي منه؛ لأنه – عز وجل – عالم بهم، مطلع عليهم، محيط بهم.

ثانياً: خص الله تعالى المعية لهم – حال تبييت الخيانة – مع أنه معهم في كل حال؛ معاملة لهم بنقيض قصدهم؛ وتأكيداً على أنه معهم وهم في هذه الحال الشديدة الخفاء، البالغة حرصاً على الاستتار، فما كان دون ذلك من أحوالهم من باب أولى عقلاً، مع أنه عليه – سبحانه – سواء.

ثالثاً: هذه الآية الكريمة من أعظم ما يردع المؤمن عن التجرؤ على محارم الله وحدوده، إذا خلا بها، لعلمه باطلاع الله عليه، حتى وإن استخفى عن الناس، ولشعوره بمراقبة الله له وإن غاب عنه كل رقيب، فلا يكن الله تعالى أهون الناظرين إليه، وفي الحديث رواه سعيد بن يزيد أنه قال للنبي ﷺ أوصني، قال: (**أوصيك أن تستحي من الله – عز وجل – كما تستحي من الرجل الصالح**) [1].

ولهذا فلا طريق للاستخفاء منه عز وجل إلا بترك ما يكره، والبعد عما نهى عنه، قال الزمخشري: " كفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم عليه من قلة الحياء والخشية من ربهم، مع علمهم – إن كانوا مؤمنين – أنهم في

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص٤٦، والبيهقي في الشعب[٦/ ١٤٦ باب الحياء] وصححه الألباني في السلسة الصحيحة برقم: ٧٤١ .

حضرته، لا سترة، ولا غفلة، ولا غيبة، وليس إلا الكشف الصريح والافتضاح"(١).

رابعاً: سعة رحمة الله وحلمه بخلقه حتى مع هؤلاء، فلم يعاجلهم بالعقوبة مع استحقاقهم لها، بل عرض عليهم التوبة ورغبهم فيها، قال السعدي:" ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ أي: قد أحاط بذلك علماً، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة، وحذرهم من الإصرار على ذنبهم الموجب للعقوبة البليغة"(٢).

خامساً: في الآية الكريمة إشارة إلى أن المؤمن إذا استشعر كمال علم الله وإحاطته بخلقه، وقدرته عليهم؛ عظم رجاءه به، وتوكله عليه، حتى لا يخشى كيد الخائنين، ولا مكر المفسدين؛ لأنه يعلم أن الله مطلع عليهم، عالم بهم، وشاهد عليهم، لا يستخفون منه ولا يغيبون عنه.

الآية الثانية: في سورة الحديد: قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [سورة الحديد: ٤].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

السورة الكريمة تتناول عدداً من الموضوعات المتعلقة بتحقيق

---

(١) الكشاف(١/ ٢٩٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص: ٢٠٥.

الإيمان في النفوس، وتعميقه في القلوب[1]، وقد استفتحت السورة مبتدئة بتعظيم الله تعالى وتنزيهه، بذكر بعض صفات جلاله وجماله، وكمال قدرته، على نحو يعمق الإيمان في القلوب، ويرسخه في النفوس.

وفي هذا السياق وردت الآية الكريمة مشيرة إلى معية الله تعالى لخلقه، وإطلاعه عليهم أينما كانوا، على نحو يورث لمن استشعر هذه الحقيقة إيماناً عميقاً في القلب، وخشوع للجوارح، وخوفاً منه تعالى.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

هذه الآية الكريمة دالة على معية الله تعالى لخلقه المعية العامة، علماً وقدرة، وإحَاطَةً بهم سمعاً وبصراً، وكل أئمة التفسير حملوا المعنى على معية العلم والإحاطة.

ومما يقوي تفسير المعية في الآية بالعلم والإحاطة، أن الآية جاءت في سياق بيان علم الله، وكمال قدرته – عز وجل – ولهذا فما سبق الآية من آيات وما جاء بعدها كلها تقرر هاتين الصفتين العظيمتين لله تعال، يقول عز وجل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ

(١) ينظر: في ظلال القرآن(٦/ ٣٤٧٦).

ٱلۡأُمُورُ . يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحديد: ١-٦] بل حتى الآية ذاتها ورد النص فيها على علم الله - تعالى - في موضعين، أحدهما سابق لذكر المعية، والآخر لاحق لها.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: ذكر الله - تعالى- معيته لخلقه هنا للدلالة على كمال القدرة والعلم، ولهذا فسياق الآيات قبلها وبعدها كله يتضمن التأكيد على هاتين الصفتين وآثارهما في الخلق.

ثانياً: الآية الكريمة دالة على ما ذهب إليه سلف هذه الأمة من القرون المفضلة، في إثبات الجمع بين صفة الاستواء على العرش والمعية، وأنه لا تعارض بينهما، خلافاً لمن أنكر صفة الاستواء استدلالاً بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ ﴾ ووجه دلالتها على ما مذهب السلف أن الله تعالى وصف نفسه بهما، وجمع بينهما في موضع واحد، فدل على أنه لا تعارض بينهما.

ثالثاً: الآية الكريمة تتضمن أعظم المعاني التي تورث في القلب تعظيم الخالق - جل وعلا - وخشوع القلب له، ففيها دلالة على كمال القدرة، من خلق السموات والأرض، والاستواء على العرش، إلى لفت النظر إلى كمال العلم، حتى لا يخفى عليه أي شي مما يلج في الأرض، ومما يخرج منها، وكل ما يصعد إلى السماء وما ينزل منها، فهذه الحركة الدائبة في الكون صعوداً ونزولاً، وولوجاً وخروجاً، كلها جميعاً بعلم الله تعالى ومراقبته، وإن قلب المؤمن ليخشع أمام هذه الحقيقة العظيمة كلما زاد تأمله

لها، ونظره فيها.

الآية الثالثة: في سورة المجادلة: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة المجادلة: ٧].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

السورة الكريمة تدور موضوعاتها حول مظاهر العناية الربانية بالمؤمنين، وحفظه تعالى لهم، ورعايته إياهم(١)، وأول تلك العناية سماع الله تعالى لشكوى امرأة ضعيفة، وحكمه في شأنها وشأن زوجها، ومن مظاهر عنايته تعالى كشف أخلاق المنافقين وأحوالهم، بما تضمنته الآيات من تأكيد على كمال علم الله تعالى واطلاعه على خلقه، حتى في أدق أحوالهم وخفي أسرارهم.

وفي هذا السياق وردت الآية الكريمة متضمنة لفت الأنظار إلى كمال علم الله وقدرته، فلا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه، وفي هذا السياق تأتي الإشارة إلى معية الله تعالى لخلقه، أينما كانوا، لتدل هذه المعية الإلهية على كمال العلم والإحاطة بالخلق.

(١) ينظر: في ظلال القرآن(٦/ ٣٥٠٣).

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

الآية دالة على معية الله تعالى لخلقه بمعناها العام، الذي يشير إلى العلم بهم، والقدرة عليهم، والإحاطة بهم.

والذين خالفوا في باب المعية من الجهمية ومن تابعهم، يستدلون بهذه الآية على قولهم: إن الله معنا في كل مكان، حيث قال عز جل: ﴿**إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا**﴾ وقالوا: لا نفهم من المعية إلا أنه معهم بذاته.

وقد رد عليهم أئمة السلف من المفسرين وغيرهم بما سبق الإشارة إليه[1]، ويعنينا هنا ذكر ما أشار إليه بعض أئمة السلف، وتابعهم عليه عدد من المفسرين، من أن سياق الآية قرينة قوية على كون المراد بالمعية في الآية معية العلم والإحاطة؛ لأنه متعلق بتقرير علم الله تعالى بخلقه وإحاطته بهم، فأول الآية وآخرها كله يشير إلى علم الله تعالى، وأول من وجدته أشار إلى هذا المعنى أحمد بن حنبل، فقد قال أبو طالب: سألت أحمد بن حنبل عن رجل قال: إن الله معنا، وتلا ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾ قال: قد تجهم هذا، يأخذون بآخر الآية، ويدعون أولها، هلا قرأت عليه: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ**﴾ فالعلم معهم، وقال في سورة (ق) ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ فعلمه معهم"[2].

(١) عرضنا ذلك في المبحث الأول من الفصل السابق عند الكلام عن الشبه التي تمسك بها القائلون بذلك.

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة(٣/ ١٥٩).

- **دلالات الآية وفوائدها:**

أولاً: ذُكر معية الله تعالى لخلقه، سيق في هذه الآية مساق تهديد ووعيد[1]، ووجه ذلك أن الآيات قبلها حديث عن الذين يُحادّون الله ورسوله، وأن الله مطلع عليهم، عالم بهم، يحصي أعمالهم، وسيجازيهم بها في الآخرة، ثم أخبر تعالى – في هذه الآية – عن علمه بخلقه، ومعيته لهم حتى لا يخفى عليه شيء من أمرهم، وإن كان نجوى، ثم بعد ذلك جاءت الآيات – أيضاً – فيها وعيد لمن يتناجى من المنافقين بما يضر بالمؤمنين، وكل هذا سياقه سياق تهديد ووعيد.

ثانياً: في الآية دلالة على سعة علم الله – تعالى – وإحاطته بجميع خلقه، إحاطةً تشمل السموات والأرض وما فيهما، حتى في أخص أحوال الإنسان حين يناجي أخص الناس به، لا فرق بين قلة وكثرة، لا فرق بين مكان ومكان، فكله عليه سواء.

ثالثاً: خص الله تعالى حالة التناجي بالمعية؛ لأنها أدل على كمال العلم والاطلاع، فإن من كان مطلعاً عليك في حال تناجيك مع خاصتك، لا يخفى عليه شيء من أمرك على ما أنت عليه من هذه الحال، فمن باب أولى أن لا يغيب عنه ما دون ذلك من حالك.

رابعاً: الآية دالة على كمال عدل الله تعالى، فإنه سبحانه مع علمه بعمل خلقه وإحصائه له إحصاء دقيقاً، فإنه – عز وجل – يطلعهم عليه يوم

---

(١) أشار إليه ابن عاشور في التحرير والتنوير(٢٨/ ٢٦).

القيامة، لتقوم عليهم الحجة، وينقطع عنهم كل عذر.

خامساً: في الآية الكريمة أعظم المعاني التي تورث في القلب تعظيم الرب - جل وعلا - وخشيته، لما يعلمه المرء من اطلاع الله عليه وشهوده له، في أخص أحواله وأشدها خفاء عن الناس؛ كحال المناجاة، ومتى استشعر القلب هذا المعنى عظم مقام ربه في قلبه، وأصلح سريرته.

المبحث الثاني:
آيات المعية الخاصة، معانيها ودلالاتها.

بعد النظر في آيات المعية الخاصة، وكلام المفسرين عليها، قسمتها إلى ثلاثة أقسام، معتبراً في ذلك مقتضى تلك المعية ولازمها، وجعلتها على أربعة مطالب:

المطلب الأول: معية النصرة والتأييد.

المطلب الثاني: معية الإعانة والهداية.

المطلب الثالث: معية الحفظ والحماية.

المطلب الرابع: آثار المعية الخاصة ووسائل تحقيقها.

المطلب الأول: معية النصر والتأييد.

في هذا المطلب نستعرض بالنظر والدراسة الآيات التي تدل على معنى معية النصر والتأييد، وضابط هذا النوع من المعية: أنها تتعلق بالقتال والبأس، فإذا ذُكرت معية الله تعالى في هذا السياق؛ فإن أول ما تُفسر به معنى: النصر والتأييد.

وقد بلغت الآيات المندرجة تحت هذا المعنى ثمان آيات كريمات، هي:

الآية الأولى: في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

السورة تعرض لعدد كبير من الموضوعات، التي تتعلق ببناء الأمة المسلمة وإعدادها للخلافة في الأرض(١)، والقيام بدين الله تعالى.

وقد وردت هذه الآية الكريمة في سياق ذكر قصة قتال بني إسرائيل مع قائدهم طالوت لجالوت وجنوده، وما تضمنته تلك القصة من المعاني

(١) ينظر: في ظلال القرآن(١/ ٢٨).

والدروس التي يحتاجها المؤمنون في جهادهم لأعداء الله تعالى؛ لأن الاستخلاف في الأرض له تبعات ولوازم، من أعظمها مدافعة أهل الباطل ومجاهدتهم، وتشير الآية الكريمة إلى أهمية الصبر في الجهاد في سبيل الله وأثره، ويكفي في ذلك أن أهله في معية الله تعالى، ومن كان الله معه فلا غالب له.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

حمل المفسرون معنى المعية في الآية الكريمة على معية النصر والتأييد، ونسبه الماوردي إلى عامة المفسرين(١)، وهذا المعنى قد دل عليه سياق الآية الكريمة، إذ هي واردة في أثناء الحديث عن قتال المؤمنين لأعداء الله تعالى، فكان أولى ما تُفسر به معية الله للصابرين بنصره وتأييده لهم.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: أشار الرازي في تفسيره إلى أن قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ يحتمل أن يكون من تمام كلام المؤمنين، ويحتمل أن يكون قولاً من الله تعالى، واستظهر أن يكون من تمام كلام المؤمنين(٢)، ويقوي ما ذكره أنه الأصل، إذ لا قرينة تصرفه عن هذا، ثم أن مما جرت به العادة فيمن يريد تثبيت غيره وتصبيره أن يقول له: الله مع الصابرين، قال ابن عاشور:

(١) ينظر: النكت والعيون(١/ ١٨٤).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب(٦/ ١٥٧) وممن أشار إلى هذا الاحتمال: أبو حيان في البحر(٢/ ٢٧٧) وأبو السعود في إرشاد العقل السليم(١/ ٢٤٩) والألوسي في روح المعاني(٢/ ٢٥٩).

"فإنهم قصدوا بقولهم هذا تثبيت أنفسهم وأنفس رفقائهم، ولذلك دعوا إلى ما به النصر؛ وهو الصبر والتوكل، فقالوا: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾"[1].

ثانياً: نلحظ في هذه الآية – وفي كل آيات المعية الخاصة – أن الله تعالى ذكر أنه مع عباده، ولم يرد في موضع أن ذكر أن عباده معه، وقد وجه ذلك عدد من المفسرين، على أن المؤمنين هم المباشرون لتلك الأوصاف من الصبر ونحوه، قال في روح البيان: "وما يفهم من كلمة "مع" من أصالتهم، إنما هي من حيث إنهم المباشرون للصبر، فهم متبوعون من تلك الحيثية، ومعيته تعالى إنما هي من حيث الإمداد والإعانة[2].

ثالثاً: عُلِّقَت معية الله تعالى هنا بوصف خاص وهو الصبر، وهذا يدل على علو منزلة الصبر، ورِفْعَة أهله، وحقيقة الصبر حبس النفس على ما يقتضيه الشرع والعقل[3]، وهو بهذا المعنى داخل في كل مجالات الحياة، فالمرء متقلب بين مِنْحَة ومِحْنَة، هو بحاجة إلى الصبر فيهما، فيصبر على النعم بشكرها، والعمل فيها بما يرضي واهبها المتفضل بها، ويصبر على البلاء بما يُلْهِم الاحتساب والرضا عن الله وقضائه، وفي الحديث الذي رواه صهيب – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: (**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان**

(١) التحرير والتنوير(٢/ ٢٩٩).

(٢) روح البيان(٤/ ٤٣٨)، ونحو ذلك أشار إليه أبو السعود (الأنفال/ ٤٦) والألوسي(الأنفال/ ٤٦).

(٣) ينظر: معالم التنزيل(١/ ٨٩).

خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له) [١].

رابعاً: ومما يدل - أيضاً - على منزلة الصبر ومقامه، أن أولياء الله تعالى الذين خرجوا جهاداً في سبيله، وقياماً بدينه - كحال المذكورين في هذه الآيات - لا ينالون نصره وتأييده إلا بعد صبرهم على بلاء الله تعالى لهم، وصبرهم على ما يلاقونه من عدوهم؛ لأن سنة الله تعالى جرت أن يبتلي عباده، ويمتحن أولياءه، يقول تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد:٣٢].

خامساً: الآية الكريمة فيها دلالة على العلاقة الوثيقة بين النصر والصبر؛ لأن النصر لا يتعلق فقط بالعدد والعدة، إذا لم يكن لأهلها ثبات وصبر، وهذا ما أشار إليه الذين ثَبَتوا من المؤمنين بقولهم: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ قال أبو السعود تعليقاً على هذا:" إنما قالوه تتميماً لجوابهم، وتأييداً له بطريق الاعتراض التذييليِّ، تشجيعاً لأصحابهم، وتثبيتاً لهم على الصبر المؤدي إلى الغلبة"[٢].

الآية الثانية: في سورة الأنفال، عند قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال:١٢].

---

(١) أخرجه مسلم[٤/ ١٨١٥ كتاب الزهد والرقائق].

(٢) إرشاد العقل السليم(١/ ٢٤٩).

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

السورة تعرض لعدد من الموضوعات المتعلقة بالجهاد في سبيل الله تعالى، تحقيقاً لمفهومه، وبياناً لأهدافه ومقاصده، وتوضيحاً لأسباب النصر والهزيمة، وذِكْراً لعدد من الأحكام والتشريعات المتعلقة بالجهاد: كالغنائم والأسرى، وكانت غزوة بدر هي المنطلق الذي عُرضت من خلاله كثير من تلك الموضوعات، إذ كانت أول مواجهة حقيقية بين المؤمنين والمشركين.

وتأتي الآية الكريمة هنا في سياق حديث السورة عن غزوة بدر، وما وعد الله تعالى به المؤمنين من النصر على عدوهم وتثبيتهم عند لقائهم، وكان من أعظم التثبيت وحي الله تعالى للمؤمنين إنه معهم، ومن كان الله معه لم يغلبه شيء.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرين إلى أن معنى المعية في هذه الآية الكريمة؛ هي معية النصر والتأييد، ومما يدل على ذلك: أن الله تعالى ذكر هذه المعية الخاصة في سياق الكلام عن غزوة بدر، ومَدَدِ الله تعالى للمؤمنين بالملائكة، تقوية لهم ونصْراً على عدوهم، وهذا معنىً يناسبه النصر والتأييد.

ومن المفسرين من جعل قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ تفسيراً لهذه المعية، وبياناً لها(١)، والحق أنه لا يخرج عن المعنى الذي قرره المفسرون للمعية؛ لأن هذا الرعب من النصر الذي يلزم

(١) أشار إليه في الكشاف(٢/ ١١٨).

من معية الله تعالى للمؤمنين.

والمفسرون وإن ذهبوا إلى أن المعية هنا معية النصر والتأييد؛ فقد اختلفوا في المخاطب بقوله تعالى: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ حيث يحتمل أحد أمرين: الأول: أن يكون المخاطب الملائكة، الثاني: أن يكون الخطاب للمؤمنين، وقد اختار الرازي الوجه الثاني، وعلله بقوله:" وهذا الثاني أولى؛ لأن المقصود من هذا الكلام إزالة التخويف، والملائكة ما كانوا يخافون الكفار، وإنما الخائف هم المسلمون"(١).

وهذا التعليل وإن كان فيه وجاهة، إلا أن فيه تفكيكاً للكلام، فسياق الكلام قبل ذكر المعية وبعدها متجه إلى الملائكة، يقوي هذا دخول الفاء في قوله: ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إذ لا يحسن إلا على هذا الوجه، قال ابن عاشور:" فكان قوله لهم:﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ مقدمة للتكليف بعمل شريف ولذلك يُذكَر ما تتعلق به المعية؛ لأنه سيُعلم من بقية الكلام، أي أني معكم في عملكم الذي أكفلكم به، ومن هنا ظهر موقع فَاء الترتيب في قوله: ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من حيث ما دل عليه ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ من التهيئة لتلقي التكليف بعمل عظيم"(٢).

على أن ما تدل عليه الآية من معنى المعية وتقتضيه؛ ثابت للمؤمنين حتى على القول الأول؛ لأن من لازم معية الله تعالى للملائكة أن يعينهم

---

(١) مفاتيح الغيب(١٥/ ١٠٨).

(٢) التحرير والتنوير(٩/ ٢٨١).

على تثبيت المؤمنين ونصرتهم، ولهذا قال الزمخشري في بيان معنى ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ "والمعنى: أني معينكم على التثبيت فثبتوهم"[1] ويشهد لهذا وعد الله تعالى بإلقاء الرعب، حيث قال تعالى بعد ذكر المعية: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ ولا نصر أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الأعداء.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: الآية دالة على أهمية الثبات في ساحات الوغى، ونزال الأعداء، فهو من أعظم أسباب النصر، ذلك أن المقاتل إنما يهزم أول ما يهزم في قلبه، فإذا ضعف القلب ضعفت القوى، وخارت العزائم، ولهذا أيّد الله تعالى المؤمنين بمعيته لهم، بما توجبه من نزول السكينة على قلوبهم، وثباتها عند لقاء عدوهم، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] وفي مقابل ثبات المؤمنين يلقي الله الرعب في قلوب أعدائهم، الذي يقودهم إلى الفشل والهزيمة، يقول تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ وهذا كله من آثار معيته تعالى للمؤمنين.

وفي الآية الكريمة ملحظ آخر دقيق حيث ذكر تعالى تثبيت الأقدام

(١) الكشاف(٢/ ١١٨).

وتثبيت القلوب، فقرن بين التثبيت الحسي للأقدام والتثبيت المعنوي للقلوب، ليكون تثبيتاً تاماً للمؤمنين[١].

ثانياً: الآية الكريمة دالة على فضل الله تعالى على عباده، وعنايته بجنده وأوليائه، إذ لم يقف الأمر على مددهم بالملائكة - وقد كان كافيهم - ولكن أيدهم بمعيته عز وجل تثبيتاً لأفئدتهم، وربطاً على قلوبهم، وهذه غاية الكرامة للمؤمنين، وحُقَّ ذلك لهم فهم خرجوا جهاداً في سبيله، وإعلاءً لكلمته، فكانوا أحق عباده بمعيته تعالى.

الآية الثالثة: في سورة الأنفال، عند قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١٩].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

تقدم في الآية السابقة التعريف بالسورة الكريمة، وهذه الآية كالآية السابقة لها، وردت في نفس السياق الذي وردت فيه، حيث الكلام عن غزوة بدر، وكيف نصر الله عباده وأولياءه، وفي هذه السياق ترد الآية الكريمة لتُردّ على المشركين لما استفتحوا الله، بأن سألوه أن يقضي بينهم وبين المؤمنين، وينصر أولى الطائفتين وأحقها، فتنزل الآيات لتقرر أن الحقيق بمعية الله تعالى بما توجبه من نصر وتأييد؛ هم المؤمنون به حقاً دون سواهم.

---

(١) أشار إلى هذا الاقتران الألوسي في روح المعاني(٦/ ٢٥٦).

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرون إلى أن معنى المعية في هذه الآية الكريمة؛ هي معية النصر والتأييد، وظاهر الآية يشهد لهذا، فإن الله تعالى ذكر هذه المعية الخاصة في سياق الكلام عن غزوة بدر، وذِكْر ما حصل من المشركين لما استفتحوا الله بأن سألوه أن يَقضِيَ بينهم وبين المؤمنين، ويَنصُرَ أولى الطائفتين، فنزلت الآية الكريمة لتقرر الحقيق بنصر الله تعالى، فبينت أن الله تعالى مع المؤمنين، ومن كان الله معه فلا غالب له.

ومما يدل على هذا المعنى قراءة فتح الهمز[(١)] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لما تدل عليه من معنى التعليل، قال الزمخشري في ذلك: " قُرئ بالفتح على: ولأن الله معين المؤمنين كان ذلك"[(٢)].

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: إن انتصار المؤمنين حقيقة لا يكون بمجرد كثرة العدد والعتاد، بل لأن الله تعالى معهم يؤيدهم وينصرهم، ولهذا أخبر تعالى أن عدد المشركين لن يغني عنهم شيئاً وإن كثُر، لا لشيء سوى أن الله مع عباده المؤمنين، يقول تعالى مخاطباً المشركين: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وعاصم من رواية حفص: بفتح الهمز، والباقي بكسرها على الاستئناف. ينظر: الداني ص١١٦ والكشف عن وجوه القراءات(١/ ٤٩١).
(٢) الكشاف(٢/ ١٢٠).

ثانياً: إن إدراك المجاهد في سبيل الله حقيقة أن الله تعالى - القوي القاهر العظيم القادر - معه ينصره ويؤيده؛ أعظم زاد يقوي روحه، ويربط على قلبه في ساحات الوغى، ومقارعة الأعداء، فلا يُرهبه شيء وإن عظم.

ثالثاً: في الآية الكريمة دلالة على العلاقة الوثيقة بين النصر والإيمان الحَقِّ بالله تعالى، فإن الله لما أخبر أن كثرة المشركين لن تغني عنهم شيئاً، علل ذلك بأنه تعالى مع المؤمنين.

وبقدر ما يكون في المؤمنين من كمال إيمان بالله تعالى؛ تكون معيته لهم، بما يلزم عليها من التأييد والنصر، قال ابن سعدي: " وهذه المعية التي أخبر اللهّ أنه يؤيد بها المؤمنين، تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان"(١).

وأمر آخر وثيق الصلة بهذا المعنى: أن أسباب النصر في المعركة لا تقف عند النواحي الماديّة من العدد والعتاد، بل إن النواحي المعنوية من أعظم أسباب النصر والهزيمة، وأول ما تكون هزيمة المقاتل في نفسه وقلبه، قبل أن يُغْلب في ساحة المعركة.

الآية الرابعة: في سورة الأنفال، عند قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص: ٣٥٠.

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

هذه الآية كالآية السابقة لها وردت في نفس السياق الذي وردت فيه، حيث الكلام عن غزوة بدر، وكيف نصر الله عباده وأولياءه، وأمكنهم من عدوهم فغنموا منهم الغنائم، وفي هذا السياق ترد الآية الكريمة في ضمن آيات أُخَر تعقيباً على غزوة بدر، بعد نصر الله المؤزر لهم، لتبين للمؤمنين أسباب النصر والهزيمة، فذكرت منها طاعة الله ورسوله، وترك التنازع الذي يؤدي للفشل وذهاب القوة، ثم نبهت على أهمية الصبر في هذه المواطن، مشيرة إلى معية الله تعالى للصابرين، وكفى بذلك دافعاً على الصبر والمصابرة.

- **موقف المفسرين من معنى المعية.**

ذهب عامة المفسرين إلى أن معنى المعية في هذه الآية الكريمة؛ هي معية النصر والتأييد، وظاهر الآية يشهد لهذا، فإن الله تعالى ذكر هذه المعية الخاصة في سياق الكلام عن أسباب النصر على الأعداء، فذكر جملة من الأسباب، ومنها الصبر عند لقاء العدو، وأخبر تعالى أن الصابرين في هذه المواطن ينالون معيته، بما توجبه من نصر وتأييد، ولهذا قال الرازي: " ولا شبهة أن المراد بهذه المعية النصرة والمعونة"[1].

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: علق – تعالى – معيته بوصف خاص وهو الصبر، وهذا يدل

---

(١) مفاتيح الغيب(١٥/ ١٣٠).

على علو منزلة الصبر، ورِفْعَة أهله، بل إن الله تعالى أمر به في جملة أسباب أمر بها المؤمنين، ثم خص أهله بأنهم الفائزون بمعيته تعالى، وكفى بهذا شرفاً للصبر وعلواً لمنزلة أهله.

ثانياً: الآية الكريمة فيها دلالة على العلاقة الوثيقة بين النصر والصبر؛ لأن النصر لا يتعلق فقط بالعدد والعدة، إذا لم يكن لأهلها ثبات وصبر، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة في سياق ذكر أسباب النصر والهزيمة، حيث أمر تعالى بالصبر في جملة ما أمر به، بل وأخبر تعالى أن الصابرين يفوزون بمعيته، ومن فاز بها كيف يهزم !

ثالثاً: قرن الله – تعالى – الصبر بعدد من أسباب النصر على الأعداء، حيث ذكر تعالى جملة من الأسباب، ثم ختمها بالأمر بالصبر، وهذا يشير إلى العلاقة الوثيقة بين هذه الأسباب وبين خُلُق الصبر، فإن من تأمل هذه الأسباب علم أن شيئاً منها لا يدرك بغير الصبر، ولهذا كان من المناسب الأمرُ به في ختام الآية الكريمة، يؤكد هذا أن الله تعالى عَلّقَ معيته بوصف الصبر، دون غيره من الأوصاف المذكورة في الآية الكريمة، وما ذاك إلا أنها لا تنفك عنه ولا تكون بغيره، قال ابن القيم: " فأمر المجاهدين فيها بخمسة أشياء، ما اجتمعت في فئة قط إلا نُصرت وإن قلّت وكثر عدوها: أحدها: الثبات، الثاني: كثرة ذكره سبحانه وتعالى، الثالث: طاعته وطاعة رسوله، الرابع: اتفاق الكلمة وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن... الخامس مِلاك ذلك كله وقِوامه وأساسه: وهو الصبر، فهذه خمسة أشياء تبتنى عليها قُبّةُ النصر، ومتى زالت أو بعضها؛ زال من النصر

بحسب ما نقص منها، وإذا اجتمعت قوى بعضها بعضاً، وصار لها أثر عظيم في النصر..."(١).

الآية الخامسة: في سورة الأنفال، عند قوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

هذه الآية كالآيات السابقة لها من السورة، وردت في نفس السياق الذي وردت فيه، حيث موضوع الجهاد بمفهومه وأحكامه محور السورة الكريمة، وقد تضمنت الآيات الكريمة أمر المؤمنين بالثبات والصبر عند لقاء عدوهم، وألا يَفِروا حتى لو قابل الواحد من المؤمنين عشرة من الكافرين، ثم جاءت هذه الآية الكريمة لتخفف عن المؤمنين، وتوجب عليهم ثبات الواحد مقابل اثنين من الكفار، لافتةً النظر إلى أثر الصبر في هذه المواطن، ويكفي في ذلك أن أهله يفوزون بمعية الله تعالى.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرون إلى أن معنى المعية في هذه الآية الكريمة؛ هي معية النصر والتأييد، وظاهر الآية يشهد لهذا، فإن الله تعالى ذكر هذه المعية الخاصة في سياق الكلام عن أمر المؤمنين بالثبات عند لقاء العدو، حتى لو كانوا ضعف عددهم، ووعدهم بالنصر عليهم إن هم صبروا على ذلك، ثم

---

(١) الفروسية، ص: ٥٠٥.

ختم الآية بخبره أنه مع الصابرين، والمعنى المناسب للمعية هنا هو النصر والتأييد الذي تكون معه الغلبة.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

فمع ما تقدم الإشارة إليه في الآية السابقة من الفوائد والدلالات المتعلقة بالصبر من حيث علاقته بالنصر، ودلالة قرْن المعية به؛ فإن مما تدل عليه هذه الآية – أيضاً – ما يأتي:

أولاً: في الآية دلالة على أن نصر المؤمنين ليس مرتبطاً بالعدد مطلقاً، بل هو في الحقيقة مرتبط بمعونة الله وتأييد لعباده، ولهذا أمر تعالى المؤمنين بالثبات عند لقاء العدو وإن كانوا ضعف عددهم، بل كان أول الأمر الثبات حتى لو كان الواحد منهم يقابل عشرة من الكفار، ليدل على أن ميزان القوى لا يقتصر على الناحية المادية – وإن كان مأموراً بها – بل يتعدى ذلك إلى المدد الإلهي، والمعية الربانية لجنده حتى ينصروا على عدوهم.

ثانياً: الآية فيها دلالة بيِّنة على منزلة الصبر ومقامه من الدين، فهاهم الصحابة – وفيهم رسول الله ﷺ – يقاتلون عدو الله، جهاداً في سبيله ورفعاً لرايته، ومع هذا لا ينالون النصر إلا بالصبر، صبرهم على بلاء الله تعالى لهم، وصبرهم على الألم والأذى الذي يلاقونه من عدوهم؛ لأن سنة الله تعالى جرت أن يبتلي عباده، ويمتحن أولياءه.

الآية السادسة: في سورة التوبة، عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ

مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

السورة تعرض لكثير من الموضوعات التي تتعلق بقضيتين رئيستين، الأولى: المشركين والبراءة منهم، والثانية: النفاق وصفات المنافقين، والكشف عن مخططاتهم وكيدهم للإسلام والمسلمين، وقد أستغرق الكلام عن موضوع النفاق أكثر السورة الكريمة.

وسياق الآية الكريمة يأتي في ثنايا الكلام عن المشركين وضلالهم، حيث تضمنت الآية الكريمة إشارة إلى شهور العام، وكيف أن الله تعالى جعلها على صفة معينة منذ خلق الكون، وما خصه منها بالتحريم والتعظيم، لتكون هذه الآية تمهيداً ومقدمةً للكلام عن نسيء الجاهلية، وما تضمنه من تلاعب بالأشهر الحرم، وتحايلاً على دين الله وزيادة في كفرهم، ولهذا تضمنت الآية الإخبار عن معية الله تعالى للمتقين الذين يعظمون دينه ويقفون عند حدوده.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرين إلى أن معنى المعية في هذه الآية الكريمة؛ هي معية النصر والتأييد للمتقين، ومما يدل على ذلك أن الله تعالى ذكر هذه المعية الخاصة بالمتقين بعد أمر المؤمنين بقتال المشركين كافة، والمؤمنون محتاجون لنصر الله وعونه على عدوهم.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: علق تعالى معيته بوصف خاص وهو التقوى، وهذا يدل على علو منزلة التقوى، ورفعة أهلها، وللسلف - رحمهم الله - آثار متعددة في بيان حقيقتها، منها قول عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يُكفَر[(١)].

ومنها قول طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله[(٢)].

والتقوى بهذه الأوصاف التي وردت عن السلف، تدل على مرتبة عالية من مراقبة الله تعالى، ودوام استحضار اطلاعه على خلقه، مما يحمل المرء على امتثال أمر الله تعالى، وتعظيم نهيه.

والمتقون - على هذا - حقيقون بمعية الله تعالى لهم، هذه المعية التي تحيط بهم وترعاهم حيث كانوا وأنى توجهوا، فإن كانوا في الجهاد كانت سبباً لنصرهم على عدوهم، وإن كانوا في مجاهدة للنفس على القيام بأمر الله والبعد عما حرم، كانت سبباً لإعانتهم عليه، وتوفيقهم إليه.

ثانياً: في الآية الكريمة دلالة على العلاقة الوثيقة بين النصر والتقوى، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين بقتال المشركين أخبر أنه مع المتقين، وإظهار التقوى هنا له دلالة خاصة، إذ لم يقل: والله معكم، وإنما علق المعية

---

(١) جامع البيان(٣/ ٣٧٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير(٢/ ١٨٩).

– بما تقتضيه – بالتقوى، قال أبو السعود:" أي معكم بالنصر والإمداد فيما تباشرونه من القتال، وإنما وُضع المُظهرُ موضعَه مدحاً لهم بالتقوى، وحثاً للقاصرين عليه، وإيذاناً بأنه المدارُ في النصر"(١) وهذا يشير إلى أن تقوى الله تعالى بما تدل عليه من تعظيم أمر الله تعالى ونهيه، من أسباب النصر على العدو؛ لأنها توجب معية الله، ومن كان الله معه فلا غالب له من الناس.

رابعاً: أشار السعدي إلى معنى من معاني ذكر التقوى في سياق الأمر بقتال المشركين، قال: " فلتحرصوا على استعمال تقوى اللهّ في سركم وعلنكم، والقيام بطاعته، خصوصاً عند قتال الكفار، فإنه في هذه الحال ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين"(٢).

الآية السابعة: في سورة التوبة، عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:١٢٣].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

قد أشرنا في الآية السابقة إلى أن السورة الكريمة تعرض لكثير من الموضوعات، التي تتعلق بقضيتين رئيستين، الأولى: عن المشركين والبراءة منهم وشركهم، ومن عهودهم مع المؤمنين، والثانية: عن النفاق وصفات المنافقين.

---

(١) إرشاد العقل السليم(٤/ ٦٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص:٣٧٣.

وسياق الآية الكريمة - هنا- يأتي في ثنايا آيات كثيرة تتكلم عن الجهاد في سبيل الله والحث عليه، والدعوة إليه، والحديث عن الجهاد وثيق الصلة بموضوع النفاق الذي أخذ قدراً كبيراً من السورة، إذ هو من أعظم ما يكشف عن المنافقين ويفضحهم؛ لأن الذي يحمل المنافق على النفاق وترك إعلان كفره؛ استبقاء نفسه وماله، فإذا دُعي للجهاد بالنفس أو المال، كان ذلك خلاف ما لأجله نافق، ولهذا لما أمر الله تعالى المؤمنين بالجهاد؛ لفت نظرهم إلى أثر تقوى الله تعالى، حيث ينال بها المجاهدون معيته، ومن كان الله معه فلا غالب له.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرين إلى أن معنى المعية في هذه الآية الكريمة؛ هي معية النصر والتأييد، وقد ذكر البيضاوي معنى آخر فقال: "مع المتقين بالحراسة والإعانة"[(١)].

وهذا المعنى من لازم النصر والتأييد، وسياق الآيات في الحديث عن الجهاد، والآية الكريمة تتضمن أمر المؤمنين بقتال الأقرب إليهم من الكفار والشدة عليهم، ثم تَخْتم الآية هذا الأمر بتذكير المؤمنين أن الله تعالى مع المتقين، ينصرهم ويؤيدهم على عدوهم.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: إن ذكر التقوى في هذا المقام فيه إشارة إلى السبب الحقيق

(١) أنوار التنزيل(٢/ ٤٩٥).

الذي يُنصر به المؤمنون على عدوهم، وهو مدى ما يقوم بهم من تعظيم حدود الله أمراً ونهياً، فكلما عظم مقام الله في قلب المؤمن كان أتقى له، وأَبْلَغ تعظيماً لحدوده، وكان لهذا حقيقاً بنصر الله وتأييده، جاء في وصية عمر بن عبد العزيز لأحد عماله:" عليك بتقوى الله في كل حال ينزل بك، فإن تقوى الله أفضل العدة، وأبلغ المكيدة، وأقوى القوة، ولا تكن في شيء من عداوة عدوك أشد احتراساً لنفسك ومن معك من معاصي الله، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم، وإنما نعادي عدونا ونستنصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا قوتنا كقوتهم.." (١).

ثانياً: أشار عدد من المفسرين إلى أن ذكر التقوى هنا، يشير إلى الباعث الذي يجب أن يحمل المؤمن على الجهاد وهو تقوى الله، قال أبو حيان" ثم قال:﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ لينبه على أن يكون الحامل على القتال ووجود الغلظة إنما هو تقوى الله تعالى، ومن اتقى الله كان الله معه بالنصر والتأييد، ولا يقصد بقتاله الغنيمة، ولا الفخر، ولا إظهار البسالة"(٢).

ثالثاً: قال ابن عاشور: " وفي توجيه الخطاب للذين آمنوا دون النبي؛ إيماء إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يغزو بعد ذلك، وأن أجله

(١) حلية الأولياء(٥/ ٣٠٣).

(٢) البحر المحيط(٥/ ١١٨) وأشار إلى هذا المعنى في مفاتيح الغيب(١٦/ ١٨٣)، ونظم الدرر(٩/ ٥٠).

الشريف قد اقترب، ولعل في قوله: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ إيماء إلى التسلية على فقد نبيهم عليه الصلاة والسلام، وأن الله معهم، كقوله في الآية الأخرى ﴿ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾"(١) .

الآية الثامنة: في سورة محمد، عند قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ [محمد: ٣٥].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

وموضوع السورة يَلُوح من اسمها(٢) حيث تسمى سورة القتال(٣) فهي سورة تتحدث عن قتال أعداء الله من الكافرين، جهاداً في سبيله وإعلاءً لكلمته، وفي السورة بيان لكثير من الأحكام المتعلقة بالقتال في سبيل الله، وخصائصه وأحواله.

وقد جاءت هذه الآية ضمن سياق آيات تتحدث عن قتال أعداء الله من المشركين، والنهي عن الوَهَن المفضي إلى موادعتهم، وعللت الآية سبب النهي بمعية الله تعالى لأوليائه المؤمنين، ومن كان الله معه فهو المنصور على كل أحد لا محالة، فكيف يُعطي الدنية في دينه.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب أكثر المفسرين إلى تفسير المعية الواردة في الآية الكريمة

(١) التحرير والتنوير(١١/ ٦٣).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن(٣٢٨٧).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن(١٩/ ٢٣٩) والبرهان في علوم القرآن(١/ ٢٨١).

بمعنيين من معاني المعية الخاصة وهما النصر والعون، وإن كان معنى النصر أكثر وروداً عنهم.

وَقَلَّ منهم من فسرها بغير ذلك، كما فعل ابن عاشور حيث قال: والمعية معية الرعاية والكلاءة، أي: والله حافظكم وراعيكم، فلا يجعل للكافرين عليكم سبيلاً"(١).

وأغرب المعاني التي وقفت عليها عند المفسرين في معنى المعية هنا ما ذكره الرازي حيث قال: " وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ هداية وإرشاد يمنع المكلف من الإعجاب بنفسه، وذلك لأنه تعالى لما قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ كان ذلك سبب الافتخار، فقال: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ يعني ليس ذلك من أنفسكم بل من الله"(٢).

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: هذه الآية من أعظم الآيات التي تحمل المجاهد في سبيل الله تعالى على الصبر عند قتال العدو، وتحمل القَرْح الذين يناله، فلا يضعف ولا يعطي الدَنِيَة للعدو؛ لأن المرء إنما يفعل ذلك لما يظنه من غلبة عدوه عليه، ومثل هذا لا يليق بالمؤمن، فإنه يعلم أن الله معه ينصره ويؤيده، قال الألوسي: " وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي ناصركم، فإن كونهم الأغلبين وكونه عز وجل ناصرهم، من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم

---

(١) التحرير والتنوير(٢٦/ ١٣٢).

(٢) مفاتيح الغيب(٢٨/ ٦٢).

الذل والضراعة"[١].

ثانياً: الآية فيها دلالة على علو المؤمنين على الكافرين، وهذا العلو عام يشمل علوهم بالقوة والغلبة، وعلوهم بالحق الذي نزل عليهم، فدينهم هو الحق الظاهر على كل الأديان.

ولما كان هذا العلو – بهذا المعنى – لا يتخلف أبداً، جاء التعبير في الآية بصيغة الجملة الاسمية بما تدل عليه من الدوام والثبات، قال ابن عاشور: " وصيغ كل من جملتي: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ جملة اسمية للدلالة على ثبات الغلب لهم، وثبات عناية الله بهم"[٢].

(١) روح المعاني(١٤/ ١٢١).

(٢) التحرير والتنوير(٢٦/ ١٣٢).

المطلب الثاني: معية الإعانة والهداية.

في هذا المطلب نستعرض بالنظر والدراسة الآيات التي تدل على معنى الهداية والإعانة، وضابط هذا النوع من المعية: أنها تتعلق بكل أمر يحتاج إلى هداية إليه وإعانة عليه، فإذا ذُكرت معية الله تعالى في هذا السياق؛ فإن أول ما تُفسر به معنى: الإعانة والهداية.

وقد بلغت الآيات المندرجة تحت هذا المعنى خمس آيات كريمات، هي:

الآية الأولى: في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

قد تقدم في المطلب السابق التعريف بالسورة بإجمال، والآية الكريمة هنا وردت في ثنايا حادثة تحويل القبلة من استقبال بيت المقدس، إلى الكعبة المشرفة، وما حصل من اضطراب بسبب ذلك، واستغلال أهل الكتاب من اليهود خصوصاً لهذه الحادثة، للطعن في الدين وتشويه الحق الذي جاء به، فلما ذكر الله تعالى حكمة ذلك ورد على أهل الكتاب زعمهم، توجه للخطاب للمؤمنين مبتدئاً بنداء الإيمان آمراً لهم بأن يستعينون على أمورهم وما يعرض لهم – وهم يقومون بمهمة الخلافة في الأرض وعمارتها – من أذى أعدائهم كالذي حصل من اليهود والمشركين في شأن تحويل القبلة، أن يستعينون على ذلك بأمرين عظيمين: الصبر والصلاة، ثم بين أن

الله تعالى مع الصابرين يعينهم ويهديهم.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

أشار عدد من المفسرين إلى أن معنى المعية في الآية هي معية الإعانة والتوفيق، وممن أشار إليه: ابن عطية، وابن جزي، وأبو حيان، وابن سعدي[١]، وبعض المفسرين ذكر مع الإعانة النصر: كالبغوي، والثعلبي، والألوسي[٢].

والآية وإن احتملت معان أخرى غير الإعانة والهداية، فإن هذا المعنى أنسبها وأقربها لسياق الآية الكريمة، ذلك أنها جاءت بعد أمر تحويل القبلة، وما حصل من اليهود والمشركين بسبب ذلك، فأمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة في شؤونهم كلها - ومنها أمر تحويل القبلة - بالصبر والصلاة، وأخبر أنه مع الصابرين، والمعنى المناسب لهذه الحال هو الإعانة والهداية، حيث يهديهم إلى القيام بما أمرهم به ويعينهم عليه، ويمنع عنهم أذى الأعداء.

ومما يقوي هذا؛ أن الله أمر بالاستعانة بالصبر والصلاة في أول الآية، وعلل هذه الأمر بمعيته للصابرين، مما يقضي أن يكون لازم هذه المعية الإعانة والهداية.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز(١/ ١٦٥) والبحر المحيط (١/ ٦٢١) والتسهيل(١/ ٢٣٢) تيسير الكريم المنان ص٧١.

(٢) ينظر: معالم التنزيل(١/ ٢٠٩) والكشف والبيان(١/ ٢٩٨) روح البيان(١/ ٦٢١).

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: علق تعالى معيته بوصف خاص وهو الصبر، وهذا يدل على علو منزلة الصبر، ورفعة أهله، ونصوص الكتاب والسنة الدالة على فضل الصبر ومنزلة أهله كثيرة، يكفي في ذلك أن الله تعالى قرنه بأعلى مراتب الدين، وأجل مقاماته، حيث قرنه تعالى بالصلاة، كهذه الآية، وقرنه بالتقوى فقال ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] وقرنه باليقين فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة: ٢٤] وقرنه تعالى بهذه المراتب العالية ليدل على فضله، وليشير – أيضاً – إلى أن تلك المنازل العالية لا تنال بغير الصبر الجميل، وهذا ما يجعل أهل الصبر بأعلى المنازل عند الله تعالى، ليستحقوا بها معيته تعالى لهم بما تتضمنه من توفيق وإعانة.

ثانياً: من آثار معية الله تعالى للصابرين، ما يورثه ذلك من ثباتهم عند حلول المصائب، ونزول المكاره، فيسهل عليهم كل عظيم، يقول السعدي في هذا:" وأخبر أنه ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: مع من كان الصبر لهم خلقاً، وصفة وملكة، بمعونته وتوفيقه وتسديده، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة"(١)، وقال الشوكاني:" وإن هذه المعية التي أوضحها الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٧١.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه، إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب، فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال، وإن كانت كالجبال"[١].

ثالثاً: أشار الطبري إلى معنى دقيق مهم لما دلت عليه الآية من معية الله تعالى للصابرين، حيث لفت النظر إلى أن من لازم هذه المعية؛ رضا الله تعالى عن صفة الصبر التي تعلقت معية الله تعالى بها، قال رحمه الله:" وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فإن تأويله: فإن الله ناصره وظهيرهُ وراضٍ بفعله، كقول القائل: افعل يا فلان كذا وأنا معك"[٢].

رابعاً: دلت الآية الكريمة دلالة ظاهرة على عظم منزلة الصبر، ومكانة أهله، فقد استفتحت الآية بنداء الإيمان، وما يشير إليه من أن ما تضمنته الآية هو من لوازم الإيمان ومقتضياته، ثم أمر تعالى بالاستعانة بالصبر أمراً مطلقاً، ليدل على أن المؤمن يستصحبه في كل شؤونه، ثم قرنه بأعظم شعائر الدين وهي الصلاة، ثم ختمت الآية بالإشارة إلى معية الله تعالى للصابرين، تلك المعية التي من لازمها التوفيق والإعانة، ولهذا قال ابن سعدي:" فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله؛ لكفى بها فضلاً وشرفاً"[٣].

خامساً: ذكر الله تعالى معيته للصابرين مطلقاً دون قيد لوصف

---

(١) فتح القدير(١/ ١٥٨).

(٢) جامع البيان(٢/ ٤١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص: ٧١.

الصبر المقتضي لهذه المعية؛ ليدل على أن المعية هنا مطلقةً لكل الصابرين، في أي شيء كان صبرهم، سواء كان صبراً على تكاليف الشريعة أمراً ونهياً، أو كان صبراً على أقدار الله وقضائه، وهذا المعنى تؤكده الآية ذاتها؛ إذ أمر الله تعالى في أولها بالصبر مطلقاً دون قيد، مما يدل على أنه يشمل كل ما يقتضي الصبر.

سادساً: تكلم بعض المفسرين عن وجه ذكر معية الله للصابرين وعدم ذكرها مع المصلين، وملخص كلامهم يدور على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أنه إذا كان مع الصابرين، فهو مع المصلين من باب أولى، قال الألوسي:" ولم يقل مع المصلين؛ لأنه إذا كان مع الصابرين كان مع المصلين من باب أولى؛ لاشتمال الصلاة على الصبر"(١).

الوجه الثاني: أن الصلاة لما كانت أعلى المطالب وقرة العين؛ لم يحتج الأمر بها إلى تعليل، بخلاف الصبر، قال أبو السعود:" ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ تعليل للأمر بالاستعانة بالصبر خاصة، لما أنه المحتاجُ إلى التعليل، وأما الصلاةُ فحيث كانت عند المؤمنين أجلَّ المطالب كما ينبئ عنه قوله عليه الصلاة والسلام: **(وجُعلت قُرةُ عيني في الصلاة)** لم يفتقر الأمرُ بالاستعانة بها إلى التعليل"(٢).

الوجه الثالث: أن ذلك على سبيل الحذف بقصد الإيجاز ليدل

(١) روح المعاني(٢/ ٢٩) وفي معناه ما أشار إليه البقاعي في نظم الدرر(٢/ ٢٤٧).

(٢) إرشاد العقل السليم(١/ ١٧٩).

المذكور على المحذوف، قال أطفيش:" ويجوز أن يكون تعليلاً للاستعانة بهما على الحذف، أي أن الله مع الصابرين والمصلين..."[١].

الآية الثانية: في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

قد تقدم في المطلب السابق التعريف بالسورة بإجمال، وأود الإشارة - هنا - إلى أن هذه الآية الكريمة جاءت في سياق عدد من الآيات المتعلقة بالمشركين، وبيان كيف يكون موقف المؤمنين منهم، وذلك جار على نسق تهيئة المؤمنين لعمارة الأرض والخلافة فيها، وقد بدأت هذه الآيات بذكر الجهاد في سبيل الله تعالى، وقتال المشركين المعتدين، فقررت حق المسلمين في الدفاع، ورد الاعتداء بمثله، والجزاء على السيئة، ولما أباح تعالى ذلك، أمر المؤمنين بتقواه حتى لا يتجاوزوا في الجزاء على السيئة بأكبر منها، وذَكَّرهم بمعية الله تعالى للمتقين بما تشير إليه من توفيقهم لفعل ما أمرهم به، وإعانتهم على ترك ما نهاهم عنه.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرين إلى أن المراد بالمعية الإلهية هنا هي معية النصر والتأييد، وذلك لأن الآية وردت في سياق مشروعية القتال، ومجازات

(١) تيسير التفسير(١/ ٢٥٤).

المشركين على اعتدائهم، وهذه المعاني يناسبها تفسير المعية بالنصر والتأييد.

ويُحْتمل أن يكون المراد معية التوفيق والإعانة؛ وذلك لأن الآية وردت في الجزاء على اعتداء المشركين، حيث بين تعالى لعباده المؤمنين، أن حرمة الشهر الحرام لا تمنع من رد اعتداء المشركين، ومجازاتهم على بغيهم؛ إن اعتدوا في الشهر الحرام، فمن اعتدى علينا جاز لنا رد اعتدائه وإن كان في شهر حرام.

غير أن الله تعالى هو يأذن للمؤمنين في مجازات المشركين على اعتدائهم – وإن كان في شهر حرام – لم يُرخص لهم في أكثر من رد البغي والمجازات على الاعتداء، ولهذا ناسب أن يُذكروا بتقوى الله تعالى التي تحجز المؤمن عن مجاوزة حدوده تعالى؛ لأن المرء قد يزيد في استيفاء حقه، ومجازات المعتدي، عن القدر الذي أَذِنَ الله فيه، طلباً لشفاء النفس، وذهاب غيظها.

ومن تدبر الآية الكريمة عَلِمَ أنها لم تَرِد – ابتداءً – في قتال الكفار الذي يناسب معه ذكر معية النصر والتأييد، وإنما وردت في بيان جواز رد اعتدائهم حتى لو كان في شهر حرام، وهو ما يناسب الأمر بالتقوى، التي تمنع المرء من تجاوز القدر الذي أذن له فيه الشرع، ثم لما أمر تعالى بتقواه ناسب أن يختم الآية بالإعلام بأنه تعالى مع عباده المتقين، يعينهم على لزوم التقوى وعدم مجاوزة ما حد لهم، ويهديهم إليه.

ولا يشكل على هذا ما أشرنا إليه من أن عامة المفسرين ذهبوا إلى أن المراد بالمعية هنا معية النصر والتأييد؛ لأنه قد سبق الإشارة – في الفصل

الأول - إلى تسامح المفسرين في التعبير عن معاني المعية الإلهية الخاصة؛ لقرب دلالات تلك المعاني فيما بينها.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: تضمن خبر الله تعالى عن معيته للمتقين؛ حَمْلَ المتقين على أمرين: أولهما: ترك الاعتداء أصلاً في الشهر الحرام، وثانيهما: المماثلة عند الجزاء على الاعتداء، ومنع المجاوزة، قال أبو السعود: "﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في شأن الانتصار، واحذروا أن تعتدوا إلى ما لم يرخص لكم"(١).

ثانياً: هذه الآية الكريمة أصل في رد الظلم والجزاء على السيئة، ذلك أن الله تعالى قد أذن للمؤمنين في رد ظلم المشركين، ومجازاتهم على اعتدائهم، حتى وإن كان ذلك في شهر حرام، بل وأكد هذا بإعلامهم أنه معهم معية خاصة بهم، وهذا أظهر دليل على هذا الأصل؛ لأن الله تعالى لا يكون معهم إلا وقد رضي عن فعلهم وأعانهم عليه.

ثالثاً: وهذه الآية الكريمة تدل أيضاً - بناء على ما تقدم - أن تقوى الله التي توجب معيته تعالى، لا تمنع المتقي من رد الظلم إن وقع عليه، ولا من مجازات المعتدي بمثل اعتدائه؛ لأن هذا من العدل الذي دل عليه الشرع، ويقتضيه العقل - ولا سيما - إن وقع هذا الاعتداء من المشركين أعداء الله، فإن تقوى الله حقيقة تكون في رد اعتدائهم، حتى لا يُظن بالمسلمين ضعف يُغري بهم عدوهم.

---

(١) إرشاد العقل السليم (١/ ٢٠٥)

الآية الثالثة: في سورة المائدة، عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٩].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها**

السورة تعرض لعدد كبير من الموضوعات التي تتعلق بالتشريعات التفصيلية لكثير من الأحكام العملية المتعلقة بالمجتمع المسلم وتنظيم شؤونه، وخصوصاً تنظيم علاقته مع غيره من أهل الكتاب والمشركين، مع تقرير القاعدة الأساس لتلك التشريعات والنظم وهي: أن حق التشريع والحكم لله تعالى وحده دون سواه(١).

وسياق الآية الكريمة ورد في ثنايا ذكر خبر الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني إسرائيل، وأمرهم بالوفاء به إيماناً برسله ونصرة لهم وبذلاً في سبيله، فما كان منهم إلا نقض ميثاق الله، وتغيير ما أنزل، وتحريف الكلم عن مواضعه.

ويأتي ذكر ميثاق الله تعالى هذا، بعد ذكر الميثاق الذي أخذه الله تعالى على المؤمنين من هذه الأمة بالالتزام بدينه، والعمل بشريعته، ليحذرهم من

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن(٧/ ٢٤٣) والتحرير والتنوير(٦/ ٧٢).

أن يكون مثل أولئك القوم.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

هذه الآية الكريمة مشكلة في تعيين نوع المعية فيها، وبيان معناها، ولهذا فلا بد من تحرير المعنى فيها، وذلك بدراسة مسألتين:

الأولى: تعيين نوع المعية فيها أهي خاصة أم عامة.

الثانية: بيان معنى المعية.

المسألة الأولى: تعيين نوع المعية في الآية.

ذهب جمهور المفسرين إلى أن الآية من ضمن آيات المعية الخاصة.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المعية فيها عامة، وأَولُ من وجدته ذكر ذلك الرازي وتبعه ابن عادل، قال:" والمعنى: إني معكم بالعلم والقدرة، فأسمع كلامكم، وأرى أفعالكم، وأعلم ضمائركم، وأقدر على إيصال الجزاء إليكم"[١] ورجحه الألوسي بعد أن حكى الخلاف فيها، وعلل ذلك: بأن التعميم أولى[٢].

ويقوي هذا أن الله أخبر بنقضهم للميثاق، ومن كان الله معه لم ينقض ميثاقاً، ولم يخلف عهداً[٣].

وقد يجاب عن هذا بأن يقال: إن الآية في النقباء وهم قد حفظوا

---

(١) مفاتيح الغيب(١١/ ١٤٦).

(٢) ينظر: روح المعاني(٤/ ١٢٩).

(٣) وهذا المعنى أشار إليه مكي بن أبي طالب وهو يرجح أن يكون الخطاب في قوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡ﴾ للنقباء وليس لبني إسرائيل، ويأتي قريباً ذكره بنصه.

الميثاق، وإنما الذي نقضه بنوا إسرائيل.

وهذا الجواب يقودونا إلى الإشارة إلى الخلاف في تعيين المخاطب بقوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ فقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنه خطاب عام لبني إسرائيل، ورجحه ابن جرير حيث قال بعد ذكر قول الربيع بن أنس: أنها خاصة بالنقباء: "وليس الذي قاله الربيع في ذلك ببعيد من الصواب؛ غيرَ أن من قضاءِ الله في جميع خلقه، أنه ناصرٌ من أطاعه، ووليّ من اتّبع أمره، وتجنّب معصيتَه، وتحامَى ذنوبه، فإذا كان ذلك كذلك، وكان من طاعته إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالرسل، وسائر ما ندب القوم إليه؛ كان معلوماً أن تكفير السيئات بذلك وإدخال الجنات به، لم يخصص به النقباء دون سائر بني إسرائيل غيرهم"[1].

وذهب قوم إلى أنه خاص بالنقباء، وقد سلك مكي بن أبي طالب قولاً انفرد به في توجيه الآية الكريمة، وجعل المعية فيها خاصة بالنقباء، قال: "قوله:﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾ إلى قوله: ﴿مَعَكُمْ﴾ اعتراض بين الميثاق وتفسيره، غير داخل في الميثاق الذي نقضه بنو إسرائيل دون النقباء؛ لأن الله تعالى قال للنقباء: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ ومن كان الله معه لم ينقض ميثاقه"، فجعل قوله تعالى ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ جملة معترضة في سياق الكلام، لتكون المعية خاصة بالنقباء غير داخله في معنى الميثاق الذي أخذ على بني إسرائيل.

---

(١) جامع البيان(٤/ ٤٩٢).

وهـذا المعنـى - الـذي أشـار إليـه مكـي بـن أبي طالـب - وإن كـان حسناً؛ فإن تخصيص الآيـة بالنقباء خـلاف ظاهرهـا، ويأبـاه الـسياق الـذي وردت فيه، إذ هو دال على أنها في بني إسرائيل، ولا قرينة تصرفه عن ذلك.

هـذا مختـصر القـول في تحريـر معنـى المعيـة في الآيـة الكريمـة، وقـد جعلت الآية الكريمة من ضمن آيات المعية الخاصة مع مـا أشرت إليـه مـن خلاف موافقة لقول عامة المفسرين، ومتابعة لهم، والله أعلم.

المسألة الثانية: بيان معنى المعية.

وبناء على ما تقدم من كون الآية في المعية الخاصة فإن عامة المفسرين - وإن ذهبـوا إلى أن المعيـة فيهـا خاصـة - قـد اختلفـوا في المـراد بهـا، فجمهورهم على أن المراد بها معية النصر والإعانة، وممن قال به: الزمخشري، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، وأبو حيان، وابن كثير.

كما ذهب عدد آخـر مـن المفـسرين إلى أن معناهـا النـصرة، ولم يـذكر معه معنى غيره، وممـن ذكـر ذلـك: الطـبري، والبغـوي، والبيـضاوي، وأبـو السعود.

وتعيين معنى المعية هنا عائد إلى تعيين المراد بالميثاق الذي أخذه الله، وشرطه عليهم، وهو ما اختلف فيه المفسرون على قولين[1]:

الأول: أن الميثـاق يتعلـق بـالإيمان بـالله وحـده، وتـصديق رسـوله،

(١) ينظـر: جـامع البيـان(٤/ ٤٩١) والمحـرر الـوجيز(٣/ ١٢٥) وزاد المـسير ص٣٦٥ ، والجامع لأحكام القرآن(٧/ ٢٦٧).

والعمل بالتوراة، وأقرب ما تفسر عليه المعية على هذا؛ الإعانة والهداية، إذ لا تعلق للنصرة هنا بمضمون الميثاق.

الثاني: أن الميثاق يتعلق بقتال الجبارين ودخول الأرض المقدسة بالشام، وأقرب ما تفسر عليه المعية على هذا، النصر والتأييد.

والذي يظهر أن أقرب القولين إلى الآية الكريمة القول الأول، وذلك لثلاثة أمور:

أولها: أنه عام يدخل فيه معنى القول الثاني؛ لأن من الطاعات امتثال أمره بالقتال.

ثانيها: أنه لا دليل في ظاهر الآية ولا سياقها يشير إلى القول الثاني، إلا الروايات والآثار التي تُعيِّن هذا المعنى، مع ما تضمنته تلك الروايات من مبالغات في صفة خلق الجبارين، وصفة زرع أرضهم وثمارها؛ تردها السنن الجارية في الخلق.

وثالثها: قوله تعالى في الآية بعدها: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة:١٣] حيث ذكر تعالى ما عوقبوا به جراء نقضهم ميثاقهم، وهي عقوبات مناسبة للقول الأول، إذ لو كان النقض متعلقاً بقتال الجبارين؛ لكانت العقوبة المناسبة لهذا المعنى ما يشير إلى الهزيمة والفشل، ونحو ذلك، والله أعلم.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: ذكر تعالى عدداً من الأوصاف التي تتحقق بها معية الله تعالى، وهي خمسة أمور:

- إقامة الصلاة، بأن تؤدى على نحو ما شرع، مستوفية أركانها وشروطها وواجباتها.
- إيتاء الزكاة على نحو ما شرع تعالى.
- الإيمان بالرسل وتصديق ما جاؤوا به.
- نصرة الرسل والقيام معهم حتى يبلغوا رسالات الله.
- الصدقة والإحسان رجاء ثواب الله تعالى وطمعاً في فضله.

وهذه الأوصاف هي أشرف الأوصاف التي يستوجب بها المرء معية الله تعالى بما تتضمنه من الإعانة والهداية والنصر، وهي لا تخص بني إسرائيل – وإن كانت واردة فيهم – ووجه ذلك كما يقول الطبري: " أن من قضاءِ الله في جميع خلقه، أنه ناصرٌ من أطاعه، ووليّ من اتّبع أمره، وتجنّب معصيتَه، وتحامَى ذنوبه، فإذا كان ذلك كذلك، وكان من طاعته إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالرسل، وسائر ما ندب القوم إليه"[1].

ثانياً: دلت الآيات الكريمات على أن أولئك القوم نقضوا ميثاق الله تعالى، ولم يوفوا بما شرط الله عليهم، حيث قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟

(١) جامع البيان(٤/ ٤٩٢).

حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة:١٣] وهم بهذا النقض – على القول بأن المعية تتعلق ببني إسرائيل – لم يستحقوا معية الله تعالى لهم بالإعانة والتوفيق، وهذه الآية على هذا فريدةٌ من بين سائر آيات المعية الخاصة، إذ كل آيات المعية الخاصة لا تخلو ممن يحقق شرطها فيستحق معية الله تعالى له.

الآية الرابعة: في سورة النحل عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

السورة الكريمة يرد فيها كثير من الموضوعات المتعلقة بإثبات ألوهية الله تعالى، ولهذا فقد تضمنت السورة حشداً كبيراً من الأدلة المتنوعة على الوحدانية، متضمنةً إشاراتٍ كثيرة على مظاهر إنعام الله على خلقه، وفيها حديث مستفيض عن المشركين وأوهامهم، وضلالهم في شركهم بالله تعالى.

وفي هذا السياق تأتي الآية الكريمة التي تُختم بها السورة في جملة آيات تدعو النبي ﷺ، وأمته من ورائه، إلى سلوك الحكمة وهو يدعو الناس إلى ألوهية الله تعالى، لافتةً النظر إلى الأذى الذي قد يعرض له، موجهةً له بالصبر، وترك الأسى وضيق النفس من أحوال أولئك المشركين، معلِلة ذلك بمعية الله للمتقين والمحسنين، لتكون هذه المعية الربانية أعظم العزاء.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

تنوعت عبارات المفسرين في بيان معنى المعية، ومدار عامة أقوالهم على معنى النصر والإعانة، وبعضهم نص على ذلك كالبغوي وابن الحوزي وأبي حيان وابن كثير.

بل ذكر بعض المفسرين معانٍ لم يذكرها في غير هذا الموضوع، انفرد بها عن سائر المفسرين، كما فعل الرازي حيث قال: " ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ معيته: بالرحمة والفضل والتربية"[(١)] وقريب منه ما ذكره الخازن، حيث قال: "وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة"[(٢)]، وهذه المعاني – في حقيقة الأمر – تدخل ضمن معاني الحفظ والهداية، وتلزم عليها.

وسبب ذلك أن الآية الكريمة تحتمل هذا التنوع، وسياقها يساعد عليه، فكُل من ذَكَر معنىً لها يجد في سياق الآيات ما يساعده.

على أن أقرب المعاني لسياق الآية – والله أعلم – معنى الحفظ والحماية، وذلك أن الله أمر نبيه بالدعوة إلى سبيله بالحكمة، وأمر المؤمنين بتحري المماثلة في معاقبة من يتعدى عليهم، مع حثه على التخلق بالصبر وترك المعاقبة، ثم أكد ذلك بأمر نبيه عليه السلام على سبيل العزيمة عليه بالصبر، ونهاه عن الحزن وضيق النفس بسبب مكرهم، وعلل ذلك بذكر معيته للمتقين والمحسنين، فلا تحزن ولا يضق صدرك من كيدهم؛ لأن الله معك يحفظك ويرعاك، والله أعلم.

---

(١) مفاتيح الغيب(٢٠/ ١١٤).

(٢) تفسير الخازن(٣/ ١٠٨).

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: عَلَّق الله تعالى معيته هنا بوصفين: وصف التقوى ووصف الإحسان، وقد تقدم لنا بيان معنى التقوى، وأنها تدور حول معنى الوقاية من عذاب الله تعالى بفعل ما أمر وترك ما نهى، وأما الإحسان فإن أفضل ما ورد في تعريفه ما ثبت عن النبي صلى الله عليه سلم في حديث جبريل – وفيه – قال: ((**الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكون تراه فإنه يراك**))[1].

وتعليق المعية بهذين الوصفين له دلالة على علو منزلة أهل هذين الوصفين، وقد مَرَّ بنا عدد من المواضع عُلِّقت المعية فيها بوصف التقوى والإحسان منفردين.

ومما يدل على علو منزلة هذين الوصفين، أن الله لما أمر المؤمنين بالعدل عند معاقبة المعتدي بأن لا يتجاوزوا حدّ المماثلة، أرشدهم إلى الأخذ بخُلُق العفو والصبر على ترك المعاقبة، وحثهم عليه، ثم ترقى بهم درجة أعلى، بأن التفت إلى خطاب النبي بعد خطاب المؤمنين، فأمره بالصبر، ونهاه عن حزن القلب وضيق الصدر، معللاً ذلك بمعيته تعالى للمتقين والمحسنين.

ومما يدل – أيضاً – على علو شأن هذين الوصفين، أنهما جمعا ما وردت به الشريعة بأقصر لفظ، حيث التقوى تتعلق بترك المنهي،

---

(١) أخرجه مسلم[١/ ١٠٢كتاب الإيمان] من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والإحسان يكون بإتقان القيام بالفرائض، ولهذا قال الشوكاني عن الآية الكريمة التي ختمت بها السورة بأنها:" جامعة لجميع المأمورات والمنهيات"(١).

ثانياً: قد يرد سؤال هنا، وهو: هل المعية ثابِتةٌ باعتبار الوصفين معاً، أو أنها لأهل الوصفين وإن كانا منفردين، والجواب عن هذا فيه تفصيل يرجع إلى معنى التقوى والإحسان في الآية؛ فإن حملنا الوصفين على أعلى معانيهما وأكمل منازلهما؛ فإن التقوى والإحسان لا يختلفان، لأن المؤمن لا يبلغ كمال التقوى حتى يكون محسناً، ولن يكون محسناً إلا إذا كان من أهل التقوى، وعليه فذِكرُ أحدِ الوصفين كاشفٌ لمعنى الوصف الآخر مُؤكدٌ له، وقد سبق أن معية الله تعالى قد ثبتت للموصوفين بالتقوى أو الإحسان استقلالاً، ولعل هذا ما يفهم من طريقة أبي السعود في تفسيره، حيث قرر أن وصف التقوى والإحسان في الآية الكريمة في أعلى مراتبهما، ثم قال بعد ذلك: "وتكريرُ الموصول للإيذان بكفاية كل من الصلتين في ولايته سبحانه، من غير أن تكون إحداهما تتمة للأخرى"(٢).

وإن حَمَلنا الوصفين على أظهر ما يَخْتصُ به كلٌ منهما، كان لا بد من الجمع بين الوصفين حتى تتحقق معية الله تعالى لأهلها، وهذا ما جرى عليه أكثر المفسرين، حيث عمدوا إلى حمل كلٍ من وصف التقوى والإحسان على معنى مناسب له، وتنوعت عباراتهم في ذلك: فمنهم من حمل التقوى على

---

(١) فتح القدير(٣/ ٤٠٢).

(٢) التحرير والتنوير(١٤/ ٣٣٨).

ترك المحرمات، والإحسان على فعل الواجبات، وهي طريقة عدد من المفسرين، ومن أوضح عباراتهم قول الشوكاني:" ثم ختم هذه السورة بآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ أي: اتقوا المعاصي على اختلاف أنواعها﴿ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ بتأدية الطاعات والقيام بما أمروا بها منها"(١).

ومنهم من حمل التقوى على أداء الفرائض والواجبات، والإحسان على ما زاد على ذلك من أنواع القربات والفضل، كما فعل ابن عاشور حيث قال: "لأن التقوى آيلة إلى أداء الواجب، وهو حق على المكلف، ولذلك أمر فيها بالاقتصار على قدر الذنب، وأُتي في جانب الإحسان بالجملة الاسمية، للإشارة إلى كون الإحسان ثابتاً لهم دائماً معهم، لأن الإحسان فضيلة، فبصاحبه حاجة إلى رسوخه من نفسه وتمكنه"(٢).

ثالثاً: نلحظ أن ذكر التقوى جاء بصيغة الجملة الفعلية، والإحسان بصيغة الجملة الاسمية، وفي تعليل ذلك يقول أبو السعود: "وإيرادُ الأولى فعليةٌ للدِلالة على الحدوث، كما أن إيراد الثانية اسميةٌ؛ لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم"(٣).

رابعاً: في الآية الكريمة قُدم وصف التقوى على الإحسان، ووجه ذلك كما يقول أبو السعود: "تقديمُ التقوى على الإحسان؛ لِما أن التخلية

---

(١) فتح القدير(٣/ ٤٠٢).

(٢) التحرير والتنوير(١٤/ ٣٣٨).

(٣) إرشاد العقل السليم(٥/ ١٥٣).

متقدمة على التحلية"(١).

الآية الخامسة: في سورة العنكبوت، عند قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها**

السورة الكريمة تعرض لعدد من الموضوعات المتعلقة بحقيقة الإيمان والتكاليف التي تلزم منه، وأثره في القلوب(٢).

وهذه الآية التي خُتمت بها السورة الكريمة تأتي منسجمة مع محور السورة، حيث تضمنت تثبيتاً للمجاهدين في سبيل الله، وتبشيراً لهم، في أيّ ميدان كان جهادهم، بأنهم على سبيل الحق والهدى، وأن الله تعالى مع المحسنين يهديهم سبيله، ويوفقهم إليه، ويعينهم على سلوكه والالتزام به، لا أحد أعظم إحساناً ممن جاهد في سبيله.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرين إلى تفسير المعية هنا بمعنيين من معاني المعية الإلهية، وهما: النصر والحفظ، حيث جمعوا بين المعنيين، وإن كان معنى النصر أكثر وروداً عنهم، وقليلٌ منهم من أشار مع هذا إلى معنى الإعانة كابن الجوزي(٣) أو إلى معنى الهداية كالسعدي(٤).

(١) الإحالة السابقة.

(٢) ينظر: ظلال القرآن(٥/ ٢٧١٨).

(٣) ينظر: زاد المسير ص١٠٨٨.

(٤) ينظر: تيسير الكريم المنان ص٧٤٧.

والذين ذكروا معنى النصر والحفظ هنا لحظوا ذكر الجهاد في الآية الكريمة، ومعلوم أن لفظ الجهاد عند إطلاقه ينصرف إلى جهاد الأعداء، ولهذا فسروا المعية هنا بمعية النصر والحفظ.

غير أن الآية وإن كانت تحتمل معنى النصر والحفظ، فإن معنى الإعانة والهداية– والله أعلم – أقرب المعاني لسياق الآية الكريمة، وذلك لأمرين:

الأول: أن لفظ الجهاد في الآية عام لا يخص جهاد الأعداء؛ لأن الله تعالى لم يقيده، وإنما قال: ﴿جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ ليدل على كل أنواع المجاهدة فيه، كمجاهدة النفس على فعل الطاعات وترك المحرمات، وكالصبر عند البلاء، وغير ذلك من منازل المجاهدة، يؤكد ذلك العاقبة التي ذكرها الله تعالى على المجاهدة وهي الهداية، ولو كان المراد خصوص قتال الأعداء لقال: "لننصرنهم" ونحو ذلك من المعاني المناسبة للقتال.

ومما يؤكد هذا ما أشار إليه ابن عطية حيث قال عن الآية الكريمة:" هي مكية نزلت قبل فرض الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عامّ في دين الله وطلب مرضاته"(١) وهذا المعنى الذي ذكره ابن عطية حمل بعض المفسرين على جعل المجاهدة عامة، وهذا ما قرر أبو حيان حيث يقول: " أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمتعلق، ليتناول المجاهدة في النفس الأمّارة بالسوء، والشيطان، وأعداء الدين ، وما ورد من أقوال العلماء ، فالمقصود بها

(١) المحرر والوجيز(٦/ ٦٦٠).

المثال"[١].

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: إن الله تعالى جعل عاقبة الجهاد فيه والجزاء عليه الهداية إلى السبل الموصل إليه، حيث قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فوعد المجاهدين بالهداية وأكد ذلك بمعيته للمحسنين، ولا أحد أعظم إحساناً من المجاهدين فيه، بل إن المجاهدة فيه هي عَينُ الإحسان؛ لأن حقيقة الإحسان تحقيق الإخلاص لله تعالى، فلا يَرى العبدُ غير الله تعالى في نيته وعمله، فإذا كان المقصود بالمحسنين المجاهدين فيه تعالى، فهم بحاجة إلى معية خاصة منه تعالى، يكون من آثارها هدايتهم وتوفيقهم وإعانتهم، والله أعلم.

ثانياً: دلت الآية الكريمة على أن المجاهدين في الله تعالى بشتى صور جهادهم من المحسنين؛ لأن الله تعالى لما ذكر عاقبة الجهاد وهي الهداية لسبيله؛ أكد ذلك بالإشارة إلى معيته تعالى للمحسنين، ولو لم يكن الأمر كذلك لم يكون للتنبيه على معيته تعالى للمحسنين معنى في السياق.

ثالثاً: دلت الآية على فضل المجاهدة في سبيل الله تعالى ومنزلتها، حيث وعد تعالى أهلها بالهداية إلى سبيله، وأخبر أنه معهم يهديهم ويوفقهم، ومن جميل ما يؤثر في هذا المعنى قول سفيان بن عيينة: " إذا اختلف الناس

---

(١) البحر المحيط(٧/ ١٥٥).

فانظروا ما عليه أهل الثغور، فإن الله قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾"[1] ويشهد لقوله – رحمه الله – قوله تعالى في قراءة الجمهور[2]: ﴿وَٱلَّذِينَ قَٰتَلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴾ [محمد: ٤-٥] حيث وعد المقاتلين في سبيله بالهداية وصلاح الحال.

---

(١) معالم التنزيل(٢/ ٢٥٦).

(٢) قرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم بضم القاف وكسر التاء مع حذف الألف بينهما: (قُتِلوا)، وقرأ الجمهور بفتح القاف والتاء مع إثبات ألف بينهما: (قَاتَلوا) ينظر: الداني لأبي عمرو، ص:٢٠٠.

المطلب الثالث: معية الحفظ والحماية.

في هذا المطلب نستعرض بالنظر والدراسة الآيات التي تدل على معنى الحفظ والحماية، وضابط هذا النوع من المعية: أنها تتعلق بكل أمر يحتاج فيه إلى حفظ وحماية من الأذى ونحوه، فإذا ذُكرت معية الله تعالى في هذا السياق؛ فإن أول ما تُفسر به معنى: الحفظ والحماية.

وقد بلغت الآيات المندرجة تحت هذا المعنى أربع آيات كريمات، هي:

الآية الأولى: في سورة التوبة، عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

تقدم في المطلب الأول التعريف بالسورة والإشارة إلى موضوعاتها الرئيسة، حيث ذكرنا أن من أبرز موضوعاتها بيان الموقف من أهل الشرك وعهودهم، والعلاقة التي يجب أن تكون معهم، وفي هذا السياق وردت الآية الكريمة – هنا – لتنبه المؤمنين أن الله مع رسوله، فهو ناصرُه لا محالة، ومُظْهِرُ أمره حتى لو تركوا نصره – وحاشاهم ذلك – وتُذكِّرُ الآية

الكريمة بنصر الله لرسوله يوم أخرجه المشركون من مكة إلى المدينة.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

تنوعت عبارات المفسرين في بيان معنى المعية الإلهية في هذه الآية، بين معنى النصر والتأييد، وبين معنى الحفظ والكلأ، وذلك على اعتبار ما بين هذه المعاني من تقارب.

على أن المعنى الدقيق للمعية هنا يتعلق بالحفظ والحماية، ووجه ذلك: أنه المناسب لسياق الآية الكريمة، وهو ما يحتاج إليه الصاحبان، فالمشركون في إثْرِهما قد جَدُّوا في طلبهم، والنبي ﷺ وصاحبه قد جَدُّوا في النجاة منهم، وهذه الحال يناسبها معنى الحفظ والحماية، فلا يصل إليهم من سعى وراءهم يطلبهم، والله أعلم.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: هذه المعية الواردة في الآية الكريمة مع أنها من ضمن المعية الخاصة، إلا أنها من أخص أنواع المعية، حيث تتعلق بذات معينة مسماة، وهي النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، وهذا خلافاً لغالب آيات المعية الخاصة حيث علقت بأوصاف معينة.

ثانياً: في الآية دلالةٌ بَيّنةٌ على آثار معية الله تعالى لأوليائه، حيث الحماية تحوطهم، والحفظ يحميهم، وهذا رسول الله ﷺ هو وصاحبه، اثنان فقط أمام جمع المشركين وحشدهم، يخرجان من مكة، وقريش كلها برجالها، ومن جَيَّشته من القبائل وطُلاب الجوائز من ورائها، يسعون في إثرهما، فلا تزال رعاية الله تحوطهما، وحفظه يحرسهما، حتى لا يلحق بهما أقل أذى، بل

حتى الأذى النفسي وحزن القلب لا يصيبها ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فتنزل السكينة على القلب، ويأتي التأييد من الرب، حتى بَلَغا المدينة سالمين غانمين، ثم يظهر الله دينه، وينصر رسوله، ويعلي كلمته، ليعود بعد نحو عشر سنين إلى البلد التي أخرج منها، ليحطم الأصنام، ويقول للناس من ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن[١]، قال الشنقيطي: "وهذا الموقف آية من آيات الله، اثنان أعزلان يتحديان قريشاً بكاملها، بعددها وعُددها، فيخرجان تحت ظلال السيوف، ويدخلان الغار في سُدْفَة الليل، ويأتي الطلَبَ على فَمِ الغار بقلوب حانقة، وسيوف مُصْلَتَةٍ، وآذان مُرْهَفَة، حتى يقول الصديق رضي الله عنه: والله يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت نعليه لأبصرنا، فيقول ﷺ وهو في غاية الطمأنينة، ومنتهى السكينة: (**ما بالك باثنين الله ثالثهما**) "[٢].

ثالثاً: هذه الآية دالة على المنزلة العظيمة لمن اخْتُصا بهذه المعية الإلهية، فأما رسول الله فهو أكرم الخلق على الله، حَقِيقٌ أن ينال هذا المنزلة وجدير بها، ولكن أن يبلغها صاحبه؛ فذلك شأو عظيم للصديق، فإن هذه المعية - بهذا المعنى - لم تثبت لأحد من الخلق إلا لثلاثة رُسُلٍ: نبينا محمد وموسى وهارون عليهم الصلاة والسلام، وأبو بكر الصديق معهم.

---

(١) أخرج مسلم[٣/ ١١٢٣ كتاب الجهاد والسير] وغيره من حديث أبي هريرة – وفيه – فقال رسول الله ﷺ لما دخل مكة عام الفتح: ((من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن)).

(٢) تتمة أضواء البيان لعطية سالم(٨/ ٢٦).

وسِرُّ أدراك أبي بكر لهذا المنزلة لـن يـشق علينا معرفتـه، فقـد أبانـت الآيـة الكريمـة عنـه، وَجَلَّتْه بأسـهل عبـارة، وأقـرب لفـظ، فالـشأن كلـه في الصحبة: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ هو صاحب رسول الله، هو صاحبه في عسره ويسره، في منشطه ومَكْرهه، في كل أحوالـه قد صحبه، فكان له فيها نِعْم الـصاحب المـلازم، ولهـذا حكـى الإجماع غـير واحد من المفسرين: بأن من أنكر صحبة أبي بكر؛ فقد كفر، لتكذيبه خبر الله في كتابه، وليست هذه الميزة لأحد من الصحابة بعد الصديق رضي الله عنـه، وعن صحابة رسول الله أجمعين(١).

خامساً: في الآية الكريمة إشارة إلى أثر كريم من آثار معيـة الله تعـالى لأوليائه، إنه الشعور بالرضـا، الـشعور بالطمأنينـة، الـشعور بالـسكينة، فـلا يضطرب القلب، ولا ينزعج الفـؤاد، ولا تحزن الـنفس، وكيـف لهـا الحـزن والله مع عبده يحفظه من كل سوء، ويرعاه من كل شر، ويفتح له مغاليق كل عسير.

وتلك منزلة من راحة النفس، وطمأنينة الفؤاد، لا يبلغها إلا المتقون

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب(١٦/ ٥٢) والبحر المحيط(٥/ ٤٥).

ومن طريف ما يُذْكر القصة التي أوردها الرازي في تفسير (١٦/ ٥٢) قال: " اعلـم أن الروافض في الدين كانوا إذا حلفوا قـالوا: وحـق خمـسة سادسـهم جبريـل، وأرادوا بـه أن الرسول ﷺ وعلياً وفاطمة والحسن والحسين، كانوا قد احتجبوا تحت عباءة يـوم المباهلـة، فجاء جبريل وجعل نفسه سادساً لهم، فذكروا للشيخ الإمـام الوالـد – رحمـه الله تعـالى – أن القوم هكذا يقولون، فقال – رحمه الله –: لكم ما هو خير منه بقوله:((ما ظنك بـاثنين الله ثالثهما)) ومن المعلوم بالضرورة أن هذا أفضل وأكمل".

الأبرار، الموصولون بمدد إلهي، فمهما كانت الكروب، واشتدت الخطوب، فلا يصدر عنهم إلا الرضا والتسليم، ولِـمَ كل ذلك؛ لأن الله معهم.

الآية الثانية: في سورة طه، عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[طه: ٤٦].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

الحديث في السورة الكريمة يتعلق بتسلية الرسول ﷺ، وبيان المهمة الموكلة إليه، وتحديد وظيفته(١)، وقد بدأت السورة بهذا الأمر من أولها، وأكدت عليه في آخرها، وعرضت في ثنايا السورة الكريمة إلى قصتين؛ قصة موسى - واستغرقت جلَّ السورة- وقصة آدم عليهما السلام، وفي القصتين تسلية لرسول الله ﷺ، وتثبيتاً لفؤاده، ولا سيما أن في القصتين مَلْحَظ العناية الربانية بأوليائه ظاهر، لا تخطئه العين.

وقد وردت هذه الآية الكريمة في سياق ذكر خبر تكليف الله تعالى لموسى بالذهاب إلى فرعون، وخوف موسى عليه السلام من طغيان فرعون عليه، وعدم إمهاله حتى يبلغ رسالة الله، فيأتيه الجواب من الله تعالى بأن الله معه يحفظه ويرعاه، فلا يناله أذى فرعون، ليكون ذكر معية الله تعالى لموسى، تسلية لرسولنا عليه الصلاة والسلام، وربطاً على قلبه، وهو يعلم أن الله لم يزل مع أوليائه يحفظهم ويرعاهم.

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن(٤/ ٢٣٢٦).

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرين إلى تفسير معنى المعية هنا بمعنيين من معاني المعية الإلهية، وهما: النصر والحفظ، حيث جمعوا بين المعنيين، وإن كان معنى النصر أكثر وروداً عنهم.

ودلالة الآية على هذين المعنيين بينة، فضلاً عما بين المعنيين من تقارب، غير أن معنى الحفظ والحماية ألصق بسياق الآيات، وأدل في المعنى؛ وذلك أن الله تعالى لما كلف موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون، خَشي موسى من بطشه وطغيانه فلا يُمْهله حتى يُتم بلاغ رسالة الله، وهذه حال يحتاج فيها موسى عليه السلام – قبل أيّ شيء – إلى حِفظٍ من فرعون وبطشه، ورعايةٍ حتى يُتِم البلاغ، ويؤدي الرسالة، ولهذا أخبره تعالى جواباً عن تخوف موسى بأنه عز وجل معه، يحفظه من عدوه.

مما يؤكد هذا المعنى التصريح بصفتي السمع والبصر، حيث قال تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ وهذا بمعنى الحفظ والحماية ألصق منه بمعنى النصر، إذ المناسب للنصر صفة القوة والقدرة ونحو ذلك، ولهذا قال البيضاوي: "والحافظ إذا كان قادراً سميعاً بصيراً تم الحفظ"(1).

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: هذه المعية الواردة في الآية الكريمة مع أنها من ضمن المعية

(1) تفسير البيضاوي(٢/ ٤٨).

الخاصة، إلا أنها من أخص أنواع المعية، حيث تتعلق بذات معينة مسماة، وهي موسى وهارون عليهما السلام.

ثانياً: في الآية دلالةٌ بَيّنةٌ على آثار معية الله تعالى لأوليائه، حيث الرعاية تحوطهم، والحفظ يحميهم، فهذا نبي الله موسى وهارون عليهما السلام، يذهبان إلى أعظم أهل الأرض طغياناً وتكبراً حتى قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] يذهبان إليه وقد علما غضبه على موسى بسبب قتله للرجل من ملئه، يذهبان إليه لا يريدان الاعتذار ولا الصفح، وإنما ليخبراه بضلاله، وضلال من تبعه من قومه، وليطلبا منه الكف عن استعباد بني إسرائيل وظلمهم، فأيّ خطر أعظم من هذا وأيّ مهمة أشد منها، ومع هذا فيذهبان إليه ويصدعان بكلمة الحق، ويجادلانه هو والملأ من قومه، في ملكه وعُقْر داره، بالحجة والبرهان، بثبات قلب وعزيمة نفس، على نحو ترى فيه جلياً آثار معية الله لهما، يكفي دلالة على ذلك موقف السحرة لما استرهبوا الناس بعظم سحرهم، حتى موسى عليه السلام أحس بالخوف من عظم السحر، وعندئذ تتنزل السكينة من الله على قلبه، ليقول له الرب جل وعلا: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[طه: ٦٨] قال في روح البيان: "ثم اعلم أن موسى وهارون عليهما السلام التجآ إلى حضرة الربوبية بكمال العبودية، فتداركهما الله بالحفظ والعون"[١].

---

(١) روح البيان لإسماعيل حقي(٨/ ١٢٥).

الآية الثالثة: في سورة الشعراء، عند قوله تعالى:﴿ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:١٥].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

الحديث في السورة الكريمة يتعلق ببيان موقف الأمم من رسل الله، المتضمن التكذيب والإعراض، مهما كانت الآيات واضحات، ولهذا افتتحت السورة بتسلية رسول ﷺ، عما يلاقيه من قومه من تكذيب وإعراض، وأنه لم يكن بدعاً من الرسل، ثم تمضي الآيات تذكر قصصاً متعدداً لرسل مضوا قبله، واجهوا التكذيب من أممهم مع عظم الآيات التي جاؤوا بها، كاشفةً حقيقة أولئك المكذبين لرسل الله ودوافعهم، ثم تعود السورة بعد ذلك كله لتُخْتَم بما بدأت به، من الحديث عن موقف المشركين من النبي ﷺ، والمهمة التي كُلِّف بها.

وفي هذا السياق تأتي الآية الكريمة هنا، ضمن آيات تتحدث عن خبر إرسال موسى وأخاه عليهما السلام إلى فرعون وملئه، مشيرةً إلى خوف موسى من بطش فرعون، وعدم إمهاله حتى يُبلغ عن الله رسالته، فيأتي الجواب من العلي الكبير مؤكداً معية الله له ولأخيه، معيةً تحفظهما من أذى فرعون وملئه، وترعاهما في مهمتهما، ليكون في ذلك أعظم التسلية لرسولنا عليه الصلاة والسلام وهو يعلم أن الله تعالى لم يزل مع أوليائه يحفظهم ويرعاهم.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرين إلى تفسير معنى المعية هنا بمعنيين من معاني

المعية الإلهية، وهما: النصر والحفظ، حيث جمعوا بين المعنيين، وإن كان معنى النصر أكثر وروداً عنهم.

وقد سبق لنا في الآية قبل هذه الإشارة إلى أقرب المعاني التي تفسر بها معية الله تعالى لموسى وأخيه هارون عليهما السلام، غير أن بعض المفسرين أشار إلى احتمال آخر في الآية الكريمة، لأنها – وخلافاً للآية قبلها – وردت بصيغة الجمع: "معكم" والخطاب لموسى وهارون عليهما السلام، وهذا ما جعل الآية تحتمل أكثر من وجه، وللمفسرين في بيان المعنى ثلاثة طرق:

– **الأولى**: جمهور أهل المفسرين، حيث فسروا الآية على نحو ما تقدم، وأثبتوا دلالاتها على المعية الخاصة، ووجهوا صيغة الجمع بأن ذلك من باب التعظيم، كما يقول الملك ونحوه: أمرنا بكذا، مع أنه واحد فرد، قال أبو حيان: " ﴿مَعَكُم﴾ قيل: من وضع الجمع موضع المثنى، أي معكما... وعلى أنه أريد بالجمع التثنية، حمله سيبويه رحمه الله، وكأنهما لشرفهما عند الله عاملهما في الخطاب معاملة الجمع، إذ كان ذلك جائزاً أن يعامل به الواحد لشرفه وعظمته"(١).

ويشكل عليه ما أشار إليه الألوسي(٢)، من أن ما بعد قوله: ﴿مَعَكُم﴾ جاء بصيغة المثنى، فلو كانا هما المرادان فقط؛ لأجري لفظ "مع"

(١) البحر المحيط(٧/ ١١).

(٢) ينظر: روح المعاني(١١/ ٩٩).

على التثنية موافقة لما بعده.

– **الثانية**: ذهب بعض المفسرين إلى أن الجمع على ظاهره، واختلفوا في تعيين من يكون معهما عليهما السلام:

فقال بعضهم: موسى وهارون وقومهما، أشار إلى هذه الطريقة البغوي، حيث قال: "وقيل: أراد معكما ومع بني إسرائيل نسمع ما يجيبكم فرعون"[1].

ويَرِدُ على هذا: أن خَبَرَ الله عن معيته لموسى وأخيه تعلق بوقت ذهابهما إلى فرعون ولقائه، ولم يثبت أن قوم موسى شهدوا ذلك المجلس.

وقال آخرون: المراد موسى وهارون عليهما السلام وفرعون وقومه، ومن قال بهذا فسر المعية بحسب من تعلقت به، ولهذا قال النسفي: "قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ أي معكما بالعون والنصرة، ومع من أرسلتما إليه بالعلم والقدرة"[2].

وقريباً منه ما جاء في روح البيان:"﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ تعليل للردع عن الخوف، ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة، والمراد موسى وهارون وفرعون، فمع موسى وهارون بالعون والنصر، مع فرعون بالقهر والكسر"[3].

(١) معالم التنزيل(٦/ ١٠٨) وأشار إليها الألوسي في روح المعاني(١١/ ٩٩).

(٢) مدار التنزيل(٢/ ٤٦٣).

(٣) روح البيان لإسماعيل حقي(٩/ ٣١٠).

ويشكل على هذا التوجيه أن فيه تفكيكاً لمعنى المعية بحملها على أكثر من معنى، وقد جاءت في سياق واحد، وبلفظ واحد.

وقد تفرد به ابن عاشور بمعنى لم أجده لغيره حيث جعل المعية هنا معية عامة، ففسرها بالعلم، وهذا هو معنى المعية العامة، قال: " فضمير معكم عائد إلى موسى وهارون وقوم فرعون، والمعية معية علم، كالتي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾"[١] ولعل الذي حمله على ذلك أنه لم يرتضِ تفكيك معنى المعية، وقد جاءت في سياق واحد، وبلفظ واحد.

ويشكل عليه أن هذه معية عامة، لا تختص بأحد، فلا مزية لذكرها جواباً على تخوف موسى عليه السلام، إذ كان بحاجة إلى نوع خاص من التثبيت لا يكون لغيره.

- **الثالثة**: أشار الألوسي إلى وجه آخر وضعفه، قال: "وزعم بعضهم أن المعية والاستماع على حقيقتهما ولا تمثيل، والمراد أن ملائكتنا معكم مستمعون، وهو مما لا ينبغي أن يُسْتَمَع، ولا بد في الكلام على هذا التقدير من إرادة الإعانة والنصرة، وإلا فبمجرد معية الملائكة عليهم السلام واستماعهم؛ لا يَطِيبُ قلب موسى عليه السلام"[٢].

والراجح - والله أعلم - قول الجمهور؛ لأن الآية - وإن كانت مُحْتمِلة - فإن ما تقدم في الموضع السابق في سورة طه، يرجح أن يكون

---

(١) التحرير والتنوير(١٨/ ١٠٩).

(٢) روح المعاني(١١/ ١٠٠).

المراد به معية الله تعالى – خصوصاً – لموسى وأخيه هارون عليهما السلام ، بما تدل عليه من الحفظ والحماية، حيث وردت هناك بلفظ التثنية، وهذا ما أشار إليه ابن كثير حين قال: " أي: قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك... ﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ أي: إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي"(١).

- **دلالات الآية وفوائدها.**

موضوع هذه الآية الكريمة كالآية السابقة لها، ولهذا فسنكتفي بما أوردناه هناك من الدلالات المشتركة بين الآيتين الكريمة، ونشير هنا إلى أن الآية الكريمة فيها مظهر كريم من مظاهر معية الله تعالى لأوليائه ورسله، فالله عز وجل يخبر موسى وأخاه هارون بمعيته لهما بكل ما في ذلك من ظلال كريمه للحفظ والحماية، بل وأكثر من هذا يرد النص على سماع الله تعالى لكلامهما، وجواب فرعون عليه، وهذا مظهر كريم شريف من العناية الإلهية بأوليائه.

الآية الرابعة: في سورة الشعراء، عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[الشعراء: ٦٢].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

تقدم في الآية السابقة التعريف بسورة الشعراء، وسياق الآية هنا في

(١) تفسير القرآن العظيم(٣/ ٥٣١).

ضمن آيات تتحدث عن خبر موسى وقومه، لما خرجوا من مصر فراراً من فرعون وبطشه، فتبعهم حتى بلغوا ماء البحر، فأيقن قوم موسى بأنهم مدركون لا محالة، إذ لا سبيل لهم إلى النجاة، فالبحر أمامهم والعدو من ورائهم، فيصيح فيهم موسى عليه السلام ليقول: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ تنطق بها روحه قبل لسانه، فما أتمها حتى يأتيه الأمر من ربه بضرب البحر بالعصا، لينشق ماؤه، ويرتفع كالجبال الشامخة، ويكشف عن قعره كأشد ما تكون الأرض يبساً، فيسير موسى بقومه معه ربه عز وجل يحفظه ويرعاه.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

كثير من المفسرين لم يتكلموا عن معنى المعية هنا، ومن تكلم منهم فيها ذهب إلى تفسيرها بمعنيين من معاني المعية الإلهية، وهما: النصر والحفظ، كما فعل الرازي، والبيضاوي، الألوسي[(١)].

على أن بعضاً منهم فسرها – أيضاً – بمعنى النصرة والهداية، كأبي السعود، والشوكاني، وإسماعيل حقي[(٢)]، وتفسيرها على هذا الوجه، اعتبر فيه قائلوه لفظ الهداية الوارد في الآية، حيث قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فذكر أن الله تعالى سيهديه.

والحقيقة إن دلالة الآية على هذه المعاني بَيّنة، فضلاً عما بين تلك المعاني من تقارب، غير أن معنى الحفظ والحماية ألصقُ بسياق الآيات، وأدلُ

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب(٢٤/ ١١٩) وتفسير البيضاوي(٤/ ٤١٨) وروح المعاني (١١/ ١٢٦).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم(٦/ ٢٤٥) وفتح القدير(٤/ ١١١) وروح المعاني(٥/ ١٣٤).

في المعنى؛ فموسى خرج بقومه فراراً من فرعون وملئه، فتبعوهم حتى بلغوا البحر، وأيقن قوم موسى بالهلاك لما رأوا فرعون بجيشه، وهذه حال يحتاجوا معها قبل أيّ شيء إلى حِفظٍ من فرعون وجيشه، فهم لن يقاتلوا جيش فرعون، حتى ينزل عليهم النصر، ولم يَضِلُوا الطريق حتى تأتيهم الهداية، وإنما هم بحاجة إلى حفظ ورعاية من فرعون وجيشه فلا ينالهم الأذى، والله أعلم.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

موضوع هذه الآية كالآيتين السابقتين لها، ولهذا فسنكتفي بما أوردناه هناك من الدلالات المشتركة بين الآيات الكريمة، مقتصرين على ما تنفرد به هذه الآية من دلالات ومعان، ومنها:

أولاً: نلحظ في الآية الكريمة هنا أن لفظ المعية قُدم في الذكر قبل لفظ اسم الرب، فقال: ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ أما في خبر نبينا عليه الصلاة والسلام مع أبي بكر فقد قدم لفظ الجلالة على المعية فقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[التوبة: ٤٠] وقد حاول المفسرون تلمس الحكمة في ذلك، فذكروا توجيهات منها[١]:

- أن تقديم لفظ المعية لأجل مراعاة معنى حصر المعية في موسى عليه السلام بالنسبة لفرعون وملئه، أي: معي ربي وليس معهم.

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب(٢٤/ ١٢٠) وروح المعاني(١١/ ١٢٧) والتحرير والتنوير(١٨/ ١٣٥).

- قال الألوسي: "قيل: قدم المعية هنا وأخرت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ لأن المخاطب هنا بنو إسرائيل وهم أغبياء يعرفون الله عز وجل بعد النظر والسماع من موسى عليه السلام، والمخاطب هناك الصديق رضي الله تعالى عنه، وهو ممن يرى الله تعالى قبل كل شيء، ولاختلاف المقام نَظَمَ نبينا ﷺ صاحبه معه في المعية، ولم يقدم له ردعاً وزجراً، وخاطبه على نحو مخاطبة الله تعالى له عليه الصلاة والسلام عند تسليته بما صورته النهي عن الحزن... ولم يكن كلام موسى عليه السلام ومخاطبته لقومه على هذا الطَرْزِ، وسبحان من فضل بعض العالمين على بعض"[(١)].

- إن تقديمه لأجل الاهتمام بأمر المعية التي هي مدار النجاة المطلوبة.

ثانياً: نلحظ أن موسى عليه السلام لما ذكر معية الله تعالى قصرها على نفسه ولم يُشْرِك قومه من بني إسرائيل فيها، وقد ذكر المفسرون توجيهات لذلك، منها:

- إن موسى عليه السلام لم يذكرهم لأنهم تَبَعٌ له، فإذا ثبتت المعية له ثبتت لهم، قال الألوسي: "وقيل: لما كان عليه السلام هو الأصل وغيره تبع له، محفوظون منصورون بواسطته وشرفه وكرامته، قال: ﴿مَعِيَ﴾ دون معنا، وكذا قال: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ دون سيهدينا"[(٢)]، ويشهد لهذا قوله تعالى:

(١) ينظر: روح المعاني(١١/ ١٢٧).

(٢) روح المعاني(١١/ ١٢٧) وبمعناه ما أشار إليه في التحرير والتنوير(١٨/ ١٣٥).

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ فصرح بنجاة موسى ابتداءً، وجعل نجاة من معه تبعاً له، معلقاً نجاتهم بتبعتهم لموسى عليه السلام.

– أن ذلك من باب العقوبة لهم على قولهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١] قال الألوسي: "وقيل: قال ذلك جزاءً لهم على غفلتهم عن قوله تعالى له عليه السلام: ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ حتى خافوا فقالوا ما قالوا، فإن الظاهر أنهم سمعوا ذلك من موسى عليه السلام في مدة بقائهم معه في مصر، أو غفلتهم عن عناية الله تعالى بهم حين كانوا مع القِبْطِ في مصر، حيث لم يصبهم ما أصابهم من الدم ونحوه من الآيات، المقتضية – بواسطة حسن الظن – إنجاءهم منهم حين أمروا بالخروج فلحقوهم، وكان تأديبه لهم على ذلك بمجرد عدم إشراكهم فيما ذكر، لا أنه نفاه عنهم كما يتوهم من تقديم الخبر، فإن تقديمه لأجل الاهتمام بأمر المعية التي هي مدار النجاة المطلوبة"(١).

– قال الألوسي في توجيه آخر: "ولم يشركهم عليه السلام في المعية والهداية، إخراجاً للكلام على حسب ما أشاروا إليه في قولهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ من طلب التدبير منه عليه السلام"(٢).

– قال الألوسي: "زعم بعضهم أن في الكلام حذفاً والتقدير: إن معي وعد ربي، ولذلك قال: ﴿مَعِيَ ﴾ دون معنا، وفيه ما فيه"(٣).

---

(١) روح المعاني(١١/ ١٢٧).

(٢) ينظر: روح المعاني(١١/ ١٢٧).

(٣) ينظر: روح المعاني(١١/ ١٢٧).

ثالثاً: هذه المعية الواردة في الآية الكريمة مع أنها من ضمن المعية الخاصة، إلا أنها أخص أنواع المعية بإطلاق، حيث تتعلق بذات معينة واحدة مسماة هي موسى عليه السلام، وهذه منقبة عظيمة، ومنزلة رفيعة له عليه السلام.

ولا يشكل على هذا ما تقدم في الفقرة السابقة من توجيه سبب عدم إشراك قوم موسى معه في المعية، فإن ما تقدم ذكره إنما هو من باب تلمس حكمة ذلك، مع التسليم بعدم النص عليهم، وأصالة موسى عليه السلام على أقل تقدير، وأن قومه تبع له في ذلك على أحسن تقدير.

رابعاً: في الآية دلالةٌ بَيّنةٌ على آثار هذه المعية الربانية الكريمة لأولياء الله تعالى، حيث الحماية تحوطهم، والحفظ يحميهم، هذا نبي الله موسى عليه السلام، هو وقومه يخرجون فراراً بدينهم من فرعون وملئه، فيطلبهم بجمع عظيم حشره من شتى المدائن، ويسير في أثرهم، حتى يدركهم وقد قطع البحر طريقهم، أدركهم وهم في أشد أحوالهم ضعفاً وهلعاً، وهو في أشد أحواله زهواً وغروراً، وقد نسي أن معية الله ترعى أولياءه، وتحوط أصفياءه، فما هو إلا أن ينشق البحر اللجي ليكون طريقاً يبساً، كأن لم تقع عليه قطرة ماء دهره كله، وإذ المياه المتلاطمة تقف شامخة كجبال شاهقات كأن لم تتلاطم يوماً من الدهر، فيالله من هذا المنظر الذي يروع الفوائد، ويأخذ الألباب، وذلك كله أثر من آثار معية الله تعالى لأوليائه وحزبه.

خامساً: إن في قول موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ معان عظيمة من الثقة بالله تعالى، وملء القلب منه، والطمأنينة

لتدبيره، حتى يصرح في قومه زاجراً لهم عن سوء الظن به تعالى، رادعاً لهم عن غلبة اليأس على قلوبهم، يقول ذلك في موقف هو أشد المواقف وأصعبها، عدوهم الغاشم الظالم الحانق أمام أعينهم، يتراءى لهم، والبحر اللجي يقطع طريقهم، فأين النجاة، وكيف السبيل! فلا يزيد نبي الله تعالى أن يقول: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ في أتمّ صور الثقة وأوفاها، وأكملها وأعلاها، هو على ثقة أن الله سيهديه، وإن كان لا يدري كيف يكون ذلك، ولا متى يكون، وعندئذ يأتيه الأمر من ربه، ممن وعده بأن يكون معه وأن يحفظه من عدوه ويرعاه، ليقول له: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ .

المطلب الرابع: آثار المعية الخاصة ووسائل تحقيقها.

من أهم ما يتعلق بهذا البحث الكشف عن آثار المعية الإلهية، وبيان الوسائل التي تعين على تحقيقها، ولهذا سيكون الحديث في هذا المطلب في فقرتين:

الفقرة الأولى: آثار المعية الإلهية.

الفقرة الثانية: الوسائل التي تعين على تحقيقها.

الفقرة الأولى: آثار المعية الإلهية الخاصة.

كشفت الآيات التي سبق دراستها عن آثار كريمة متنوعة للمعية الإلهية، ويمكن إجمال تلك الآثار في النقاط التالية:

أولاً: أعظم آثار المعية الإلهية، هي تحقق ما يلزم عليها من المعاني المناسبة، وقد تبين لنا أنه يلزم على معية الله تعالى لأوليائه أحد ثلاثة أمور، بحسب حال من تعلقت به، وهي:

الأول: النصر والتأييد.

الثاني: الإعانة والهداية.

الثالث: الحفظ والحماية.

وهذه اللوازم العظيمة لمعية الله تعالى، ظهرت جلية بَيّنة في الآيات الكريمة التي سبق دراستها، حيث وجدنا معية الله تعالى لا تبارح أولياءه وعباده، فإن كانوا بحاجة إلى نصر نصرهم، أو حفظ حفظهم، أو هداية

هداهم، أو إعانة أعانهم.

هذا موسى عليه السلام يخرج بقومه فراراً من فرعون وملئه، حتى إذا قطع البحر طريقهم، ظن قومه أنهم مدركون لا محالة، فيهتف فيهم موسى المطمئن إلى أن الله معه، ليقول لهم: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢] فما أتم كلماته حتى ينزل عليه الوحي بضرب البحر بالعصا، لينشق طريقاً يبساً، فيحفظ الله عباده وينجيهم، ويذل أعداءه ويهلكم.

وفي صورة أخرى تكشف عن آثار معية الله تعالى في نصر جنده وأوليائه، في خبر أهل اليقين والإيمان من جيش طالوت، لما برزوا لجالوت وجنوده، وقد فاقوهم عددا وعتاداً، فما كان منهم إلا أن توجهوا بقلوبٍ عمرها الإيمان بالله والثقة به، مثبتين لإخوانهم مُصَبِّرين لهم، يقول تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩] وصدق ظنهم بالله تعالى، فهو مع أوليائه ينصرهم ويؤيدهم، فنصرهم مع قلة عددهم، وأذل عدوهم مع كثرة عددهم وعتادهم.

ثانياً: إن كل الصفات الواردة في المعية الخاصة مع ما تدل عليه من لوازم خاصة بحسب سياقها – على ما بيناه – فهي تدل أيضاً على أثرٍ عام لا يبارح أهل تلك الصفات التي تعلقت بها معية الله الخاصة، وهي رضا الله تعالى عنهم، هذا الرضا الذي لزم منه أن يكون معهم يهديهم ويعينهم وينصرهم ويحفظهم.

ثالثاً: ومن ذلك ما تورثه المعية الإلهية من شعور بسكينة القلب، وطمأنينة النفس، وأبلغ مثال على ذلك خبر إمام المرسلين عليه الصلاة والسلام، وصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فيما وقع لهما في حادثة الهجرة، لما آواهما الغار في إثرهما المشركون بخيلهم ورجلهم، فعظم الأمر على أبي بكر خوف أن يلحق بالنبي ﷺ أذى، حتى دمعت عيناه، وعندئذ ينظر إليه نبي الله ليسكن روعه ويطمئن نفسه يقول له: (**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**) [(١)].

رابعاً: من أبرز آثار معية الله تعالى الخاصة، هذا الإحساس الكريم الذي يشعر به المؤمن، مما لا يمكن وصفه ولا شرحه، وهو يعلم أن الله القاهر القادر، العلي الأعلى، معه هو العبد الضعيف العاجز، معه ينصره، ويحفظه ويعينه، وهذا الإحساس الكريم يدفع المؤمن إلى بذل الجهد سعياً لتحصيل هذه المنزلة الرفيعة، والفوز بهذه المعية الكريمة.

الفقرة الثانية: الوسائل التي تعين على تحقيق المعية.

معية الله تعالى دَرَجة عالية، ومنزلة رفيعة، ولهذا لا ينالها إلا الكُمَّلُ من عباده، الذين بلغوا أعلى مراتب العبودية له تعالى، وهناك وسائل تعين المرء ليبلغ هذه المنزلة، فينال شرف معيته لله تعالى، ويمكن تَبيّن تلك الوسائل بطريقين:

---

(١) أخرجه البخاري[٧٤٨ كتاب: فضائل أصحاب النبي، باب: مناقب المهاجرين] ومسلم[٤/ ١٤٧٨ كتاب فضائل الصحابة].

الأول: عن طريق النظر في الأوصاف التي وردت قرينةَ معية الله تعالى.

الثاني: النظر في أخلاق الأشخاص الذين خصهم الله تعالى بمعيته وصفاتهم.

فأما الأول: فإن الله تعالى قد ذكر عدداً من الأوصاف التي استحق أهلها أن ينالوا شرف معيته تعالى لهم، وهي أربعة أوصاف:

الأول: الصبر.

الثاني: التقوى.

الثالث: الإيمان.

الرابع: الإحسان.

وقد مر بنا في المطلب السابق بيان معاني هذه الأوصاف ودلالاتها، فمن أراد الظفر بمعية الله تعالى؛ فعليه أن يجتهد في تحقيق هذه الصفات الأربعة.

ومما يجدر لفت النظر إليه إن هذه الصفات الأربع، هي أعلى مراتب الدين، وأجل مقامات العبودية لله تعالى، ولهذا فأهلها حقيقون بمعية الله لهم بكل ما تقتضيه، ويلزم عنها.

وهذه الأوصاف مع ما بينها من تلازم وتداخل، فإن في كل واحدة منها من المعاني الخاصة التي لا توجد في غيرها، ولهذا فقد يغلب على المرء أحدها، كأن يعرف بالتقوى، أو يعرف بالصبر، ونحو ذلك .

أما الثاني: فهو النظر في صفات الأشخاص الذين ثَبُتت لهم المعية

الخاصة، والتأمل في الأحوال التي كانوا عليها واحتفت بهم، لما أخبر تعالى بمعيته لهم.

لقد خص الله تعالى أربعة من الخلق بمعيته، فعينهم بأسمائهم دون سائر الخلق، وهم: النبي محمد وموسى وهارون عليهم الصلاة والسلام، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، فمن نظر في ما يميزهم من صفاتهم وأخلاق، واجتهد في الاقتداء بهم، والتحلي بأخلاقهم؛ كان حقيقاً أن ينال معية الله تعالى كما نالوها، ولن يشق علينا معرفة صفاتهم وأخلاقهم؛ فقد كانوا في أعلى مقامات الطاعة، وأكرم منازل العبودية.

كما إن التأمل في الحال التي كانوا عليها حينما أخبر تعالى بأنه معهم، يكشف لنا شيئاً من الصفات التي تعين على نيل هذه المنزلة.

وإذا تأملنا حالهم ظهر لنا بشكل جلي أن الحال التي كانوا عليها تضمنت: **كمال العبودية والطاعة لله، مع كمال الخضوع له والتعلق به، في أشد الأحوال ضرورة وخطورة**، وهذه الحال هي أكمل الأحوال التي يستصحب بها العبد معية الله، ويستنزل بها معونته عز وجل.

هذا موسى وأخوه يذهبان إلى أشد الطغاة، وأعتى الظالمين، برسالة فيها زوال ملكه، وتحرير العباد من رِقّه وأسره، يذهبان له بلا معين أو نصير، ولا مؤيد أو ظهير، فكان تعلقهما بالله خالصاً لا شائبة فيه، وتفويضهما تام لا دَخَل فيه، فكان حقيقاً بهما أن ينالا شرف معية الله لهما، فتكلؤهما رعاية الله وحفظه، فلا يصل إليهما أذى فرعون وملئه.

ونبي الله محمد عليه الصلاة والسلام مع صاحبه رضي الله عنه، في

حال لم تكن بعيدة عن حال أخويهما موسى وهارون، فقد خرجا وأهل مكة ومن معهم قد أجلبوا بخيلهم ورَجْلِهم، في أثرهما لا يألون جهداً في طلبها والظفر بهما، يخرجان وهما في أشد حالهما ضعفاً، فلا معين ولا ظهير، وإنما التعلق بالله، والثقة بحسن بلائه بأوليائه، فكان حقيقاً بهما أن ينالا شرف معية الله لهما، فيحفظهما الله ويصرف عنهما كل أذى.

وبعد فإذا كان العبد قد قام لله تعالى، وهو في غاية الضعف، وقلة الناصر والمعين ، فتلك أكرم حال يستوجب بها المرء معية الله، فيحفظه ويهديه وينصره.

خاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن تولاه، وبعد:

فقد خَلُصت هذه الدراسة إلى عدد من النتائج، هي على النحو التالي:

أولاً: أن مذاهب الناس والطوائف المنتسبة إلى الإسلام قد اختلفت في بيان معنى حقيقة معية الله تعالى لخلقه.

ثانياً: أن المعية تنقسم إلى أقسام متنوعة، بحسب الاعتبارات التي يُنظر من خلالها إليها.

ثالثاً: بلغ عدد آيات المعية العامة ثلاث آيات، وآيات المعية الخاصة سبع عشرة آية.

رابعاً: أجمع المفسرون - وإن اختلفت مذاهبهم العقدية - على تفسير المعية الإلهية العامة بالعلم والقدرة، ونحو ذلك من المعاني الدالة على كمال القدرة والإحاطة بالخلق، كما فسروا المعية الخاصة بما تقتضيه من المعاني الخاصة كالنصرة والحفظ والإعانة، وقد حكى الإجماع على ذلك عدد منهم - كما تقدم -

ولا يؤثر على هذا ما ذكرناه من مذاهب غلاة الجهمية والمتصوفة ونحوهم، فإنهم وإن خالفوا عامة الفرق الإسلامية في هذا الباب؛ فليس لهم تفاسير مستقلة متداولة.

على أن المفسرين وأن اتفقت أقوالهم في معنى المعية الإلهية، فإن

هناك فروقاً بين طريقة أهل السنة والجماعة من سلف هذه الأمة ومن تبعهم بإحسان، وبين من خالفهم من سائر الفرق المنتسبة إلى الإسلام، في أمرين أساسين:

الأول: أن كل من خالف السلف يعتقدون أن معية الله تعالى لخلقه من باب المجاز وليست حقيقة، ويرون أن تفسيرها بالعلم من باب الصرف لها عن ظاهر لفظها.

أما أهل السنة فيرون أن معيته تعالى حق على الحقيقة، ويرون أن تفسيرها بالعلم والإحاطة ونحو ذلك من المعاني المناسبة التي يقتضيها السياق، هو الظاهر الذي تدل عليه، وأنها لا تدل على أكثر من هذه المعاني حتى يقال: بأنه قد عُدل بها عن ظاهر لفظها.

الثاني: ويظهر – أيضاً – الفرق بين مذهب السلف ومن خالفهم، أن السلف يثبتون مع معية الله تعالى لخلقه، علوه على خلقه ذاتاً وصفة، واستواءه على عرشه، ولا يرون بين هذه الصفات تعارضاً، وأما من خالفهم فقد أنكروا علو الذات والاستواء.

خامساً: جعل بعض المفسرين المخالفين لطريقة السلف آيات المعية العامة أصلاً في باب التأويل لحقائق صفات الله تعالى، لاعتقادهم أن تفسيرها بالعلم عدول عن ظاهرها وسلوك لطريق التأويل، وقد ظهر من خلال البحث خطؤهم في فهم حقيقة مذهب السلف.

سادساً: سلك غالب المفسرين الاختصار في الكلام عن المعية الإلهية، فلم يتوسعوا في التقرير والمناقشة فيها، وأبرز سبب لذلك أن المسألة

متقررة لا تحتاج إلى بسط وتوسع، ويستثنى من ذلك بعض تفاسير الصوفية فقد توسعوا فيها، وسبب ذلك ما للمعية عندهم من معان روحية خاصة.

سابعاً: تضمنت جميع آيات المعية العامة ما يدل على كمال علم الله وقدرته وإحاطته، وهذا مناسب لمضمونها ومعناها.

وأما آيات المعية الخاصة فقد أفادت قدراً زائداً على ذلك؛ وهو رعاية الله تعالى لأوليائه، وعنايته بهم، فإن كانوا بحاجة إلى نصر نصرهم، أو حفظ حفظهم، أو إعانة أعانهم ، أو هداية هداهم.

ثامناً: كل آيات المعية متعلقة بالمكلفين من عباد الله مؤمنهم وكافرهم، إلا في موضع واحد وقع فيه خلاف، وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ﴾ [الأنفال:١٢] حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن المعية فيها متعلقة بالملائكة.

تاسعاً: غالب الآيات الواردة في المعية هي من السور المدنية، حيث بلغت ثلاثة عشر موضعاً، وأما في السور المكية ففي أربعة مواضع.

وأكثر سورة وردت فيها المعية سورة الأنفال، حيث وردت في أربعة مواضع، ثم سورة البقرة والتوبة في ثلاثة مواضع في كل منهما.

عاشراً: يغلب على جانب المعية العامة معنى التخويف والتحذير؛ لما فيها من دلالة على اطلاع الله تعالى على خلقه، وإحاطته بهم، يؤكد هذا السياق الذي وردت فيه، حيث يغلب عليه معنى الترهيب.

أما المعية الخاصة فيغلب عليها جانب الترغيب والإطماع، ولهذا فقد اقتضت معاني النصر والحفظ والتوفيق.

الحادي عشر: تبين من خلال البحث أن المعية الخاصة لا تكون إلا لعباد الله المؤمنين، بخلاف المعية العامة فهي لكل الخلق.

الثاني عشر: إن أبرز أثرٍ لمعية الله تعالى العامة على العباد، هو شعور المرء بأن الله معه، عالم به مطلع عليه، محيط به سمعاً وبصراً، وقدرة وتدبيراً، ومن علم ذلك حقاً، وأيقن به صدقاً؛ أورثه دوام المراقبة لله تعالى، والحذر منه، فلا يراه حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره.

الثالث عشر: أجمع المفسرون على أن المعية الخاصة تفيد قدراً زائداً على معنى المعية العامة، تُفسر بحسب السياق الذي وردت فيه، وبعد النظر في كلامهم تبين أن المعاني التي ذكروها لا تخرج عن ثلاثة معاني، وربما عبروا بألفاظ مختلفة، غير أنها قريبة المعنى من هذه الألفاظ، وهي:

الأول: النصر والتأييد. الثاني: الإعانة والهداية. الثالث: الحفظ والحماية.

على أن من المفسرين من لم يعتن بتحرير هذه المعاني، حيث نجد منهم من يذكر أكثر من معنى في الآية الواحدة، بل ربما يجمع بينها فيذكر المعاني الثلاث جميعاً، ويظهر أن سبب ذلك يرجع إلى أن تلك المعاني الثلاثة متقاربة المعنى والدلالة، وفضلاً عن هذا فربما كانت الآية تحتمل أكثر من معنى.

الرابع عشر: من أقسام المعية الخاصة ما تعلق بذات معينة، وهي أخص أنواع المعية الإلهية؛ لأنها تقتصر على ذوات معينة فقط، وقد بلغت أربعة مواضع، تشير إلى أربعة أعيان، هم ثلاثة أنبياء وصديق، أما الأنبياء

فمحمد وموسى وهارون عليهم الصلاة والسلام، وأما الصديق فأبو بكر رضي الله عنه، ودلالة ذلك على شرفهم وعلو منزلتهم ظاهر.

وأخص أنواع المعية بإطلاق ما ورد في شأن موسى عليه السلام، في موضع واحد، حيث قال تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢].

الخامس عشر: من أقسام المعية الخاصة ما تعلق منها بوصف، وأكثر آيات المعية الخاصة جاءت على هذا النوع، وقد بلغت عشرة مواضع، واقترن بها أربعة أوصاف، هي:

١. وصف الصبر، ورد في أربعة مواضع.

٢. وصف التقوى، ورد في أربعة مواضع.

٣. وصف الإحسان، في موضعين.

٤. وصف الإيمان، في موضع واحد.

ومجيء غالب آيات المعية معلقة بأوصاف دون أعيان؛ دلالة على علو شأنها، وفيه دعوة إلى السعي لنيل شرف معية الله تعالى، وذلك بالتخلق بتلك الأوصاف.

السادس عشر: المعية الخاصة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: معية الأوصاف، ولها معنيان:

الأول: معية النصر والتأييد. الثاني: معية الإعانة والتوفيق.

القسم الثاني: معية الأعيان، ولم ترد إلا على معنى واحد هو: الحفظ والحماية، ولعل اختصاص الأعيان بهذا النوع من المعية لأن المرء في حال

الشدة والخوف أول ما يحتاج إليه ويشغل فكره أمر حفظ نفسه وحمايتها.

السابع عشر: هناك آيات وردت في المعية الخاصة ولم تقيد المعية فيها بوصف خاص أو ذات معينة، غير أنه يفهم من السياق الذي وردت فيه ما يدل على معنى الإيمان وعمل الصالحات، والجهاد في سبيل الله، وهي ثلاثة مواضع: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [المائدة:١٩] وقوله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [الأنفال:١٢] وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ [محمد:٣٥].

الثامن عشر: أن معية الله تعالى الخاصة بكل ما تتضمنه من الشرف والمكانة لأهلها تنال بطريقين:

الأول: تحقيق واحد من هذه الأوصاف التي جاءت المعية مقترنة بها.

الثاني: النظر في صفات وأخلاق الأشخاص الخاصّين، الذين ثَبُتت لهم المعية الخاصة.

التاسع عشر: غالب معاني المعية الخاصة يتعلق بالنصر والتأييد، حيث وردت في ثمانية مواضع، كلها تتعلق بالجهاد في سبيل الله، وذلك لأن المرء في حال قتال تسفك فيها الدماء، وتذهب فيه الأرواح، وهو بأمس الحاجة إلى تثبيت القلب وتسكين الفؤاد، ولهذا ورد التأكيد في أكثر من

موضع في القرآن الكريم على معية الله تعالى للمجاهدين في سبيله.

العشرون: للمعية الخاصة عدد من الآثار من أبرزها: إنها تدل على رضا الله تعالى عن كل من ثبتت لهم المعية من الأعيان أو الأوصاف.

ومن آثارها أيضا الإحساس الكريم الذي يشعر به المؤمن، وهو يعلم أن الله معه، ينصره، ويحفظه ويوفقه، وهذا يدفعه إلى بذل الجهد سعياً لتحصيل هذه المنزلة الرفيعة والمعية الكريمة.

الحادي والعشرون: إن المؤمن أقرب ما يكون تحقيقاً لمعية الله تعالى وظفراً بها حين يكون في غاية الضعف وقلة الناصر، مع قيامه لله تعالى، فإنه والحال هذه يستوجب معية الله تعالى له، فيحفظه ويعينه وينصره.

وأخيراً.. فالباحث يوصي بدراسة الآيات التي تتعلق بجوانب الاعتقاد دراسة تفسيرية تنطلق من آيات القرآن الكريم، تكشف عن معانيها ودلالاتها، وتجليها للناس، فإن ذلك أَسَدُّ الطرق لبيان العقيدة، وأنهج السبل لتعميقها في النفوس، وربط الناس بكتاب ربهم.

هذا والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

- الإبانة، لابن بطة العكبري، تحقيق رضا نعسان، دار الراية/ الرياض، ط٢، ت١٤١٥هـ.
- الآثار المروية في صفة المعية، محمد التميمي، دار أضواء السلف/ الرياض، ط١، ت:١٤٢٢ه.
- اجتماع الجيوش الإسلامية، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط، ت: ١٤٠٤ هـ.
- الأسماء والصفات، أبو بكر البيهقي، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١، ت:٢٠٠١م
- أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١، ت:١٤١٧هـ
- الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق سليم الهلالي، دار ابن عفان/ الخبر، ط١، ت:١٤١٢هـ
- أقاويل الثقات، مرعي الكرمي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط١، ت:١٤٠٦هـ
- أنوار التنزيل، أبو سعيد البيضاوي، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١، ت:١٤٠٨هـ
- إيثار الحق على الخلق، ابن الوزير محمد بن نصر، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.

- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق المرعشلي وآخرون، دار المعرفة/ بيروت/ ط١، ت:١٤١٠هـ
- تاج العروس، المرتضى الزبيدي، مجموعة من المحققين، دار الهداية/ بيروت ط١.
- تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق سليم الهلالي، دار ابن عفان/ الخبر، ط٢.
- التدمرية، أحمد ابن تيمية، تحقيق: محمد السعوي، ط١ ت:١٤٠٥هـ
- التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ، تحقيق محمد سالم، دار الكتب العلمية/ بيروت
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء ابن كثير، دار الفكر/ بيروت، ط١، ت:١٤١٢هـ
- التمهيد، أبو عمر بن عبد البر، تحقيق العلوي وآخرون، وزارة الأوقاف/ المغرب، ط١، ت١٣٨٧هـ
- تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن بن سعدي، دار ابن الجوزي/ الرياض، ط١، ت:١٤٢٥هـ
- التيسير في القراءات السبع، أبو عمرو الداني، تحقيق أوتو يرتزل، دار الكتاب العربي/ بيروت،ط٣، ت:١٤٠٦هـ
- جامع البيان، ابن جرير الطبري، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١، ت:١٤١٢هـ
- الجامع الصحيح المسند، محمد بن إسماعيل البخاري، دار

السلام/ الرياض، ط١، ت:١٤١٧هـ
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة/ بيروتط١: ت١٤٢٧هـ
- حلية الأولياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي/ بيروت، ط٤، ت: ١٤٠٥هـ
- الرد على الجهمية والزنادقة، ابن مندة، المكتبة الأثرية/ باكستان، ط١
- روح المعاني، محمود الألوسي، دار الفكر، بيروت، ط١، ت:١٣١٧هـ
- زاد المسير، أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ت١٤٢٣هـ
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة، أبو القاسم اللالكائي، تحقيق الغامدي، دار طيبة/ الرياض، ط٤، ١٤١٦هـ
- شرح العقيدة الطحاوية، علي بن أبي العز، تحقيق التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة/ بيروت/ ط٢، ت:١٤١٣هـ
- شرح العقيدة الواسطية، محمد بن عثيمين، دار ابن الجوزي/ الرياض، ط٢، ت:١٤١٥هـ
- الشريعة، أبو بكر الآجري، تحقيق الدميجي، دار الوطن/ الرياض، ط٢، ت:١٤٢٠هـ
- صحيح مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج، دار ابن حزم/ بيروت، ط١، ت:١٤١٦هـ
- عرائس البيان في حقائق القرآن، البقلي، تحقيق أحمد فريد، دار الكتب

العلمية، ط١

- فتح القدير، محمد الشوكاني، دار الفكر/ بيروت، ط١، ت:١٤٠٣هـ
- الفروسية، ابن قيم الجوزية، تحقيق مشهور بن حس دار الأندلس/ حائل، ط١، ت:١٤١٤هـ
- الفصل في الملل، علي بن حزم، تحقيق محمد بن نصر وآخرون، دار الجيل/ بيروت.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق/ القاهرة، ط١٣، ت١٤٠٧هـ
- القواعد المثلى، محمد بن عثيمين، دار الوطن/ الرياض، ط١، ١٤١٢هـ
- الكشف عن وجوه القراءات، مكي بن أبي طالب، تحقيق محيي الدين، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط٤، ت:١٤٠٧هـ
- اللباب، أبو حفص بن عادل، تحقيق عادل الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١، ت:١٤١٩هـ
- لسان العرب، ابن منظور، دار إحياء الثرات العربي، بيروت ط٢، ت:١٤١٨هـ
- مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، دار العلوم/ بيروت ط١
- المحكم، ابن سيده، عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية/ بيروت/ ت٢٠٠٧م
- معالم التنزيل، أبو محمد البغوي، تحقيق النمر وآخرون، دار طيبة/ الرياض، ت١٤٠٩هـ.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١،

ت:١٤١١هـ

- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الصفهاني، تحقيق نديم مرعشلي، دار الفكر/ بيروت.
- مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري، تحقيق هلموت ريتر، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ط٣.
- الملل والنحل، أبو الفتح الشهرستاني، تحقيق عبد الأمير وآخرون، دار المعرفة/ بيروت، ط٣،ت: ١٤١٤هـ
- الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، تعليق دراز وآخرون، دار الكتب العلمية/ بيروت.
- النكت والعيون، أبو الحسن الماوردي، تحقيق السيد بن عبد المقصود، دار الكتب العليمة/ بيروت.
- الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، جامعة الشارقة، ط١ ١٤٢٩هـ
- هميان الزاد إلى دار المعاد، محمد بن يوسف أطفيش،
- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم د. محمد محمود حجازي، مكتبة دار التفسير/ القاهرة، ط٢ ١٤٢٤هـ